القرن الثاني

1 – السيدة فاطمة النبوية

2 – السيدة سكينة

3 – عبد الرحمن بن هرمز

4 – الإمام أبو حنيفة

5 – الإمام الأوزاعي

6 – الإمام الليث

7 – الإمام مالك

8 – هارون الرشيد

9 – السيدة نفيسة

10 – المأمون

11 – معروف الكرخي

12 – الإمام الشافعي

2

هـذا القـرن

هذا القرن ، ازدهرت فيه البيئة الإسلامية بكل مظاهر الحضارة التـى نـضجت ثمارها ، بعد أن تمكن خلفاء بنـى العبـاس مـن دعـم أركـان دولـتهم .. وكـان مـن مقومات ذلك : تشجيع الزراعة ؛ فوفروا وسائل الري بشق الجداول وحفر الـترع ، وتشجيع الصناعة ، فارتقت فنا وتنوعت شـكلا ، وازدهـرت الثقافـة فتنـافس ذوو التخصصات والكفاءات في تدوين العلوم المختلفة وضبطها وتمييزها . فدونت كتب الفقه ، وحررت مسائله ، ووضحت مناهجه ، واتسع نطـاق المنـاظرات والنـدوات العلمية والأدبية فتركزت القواعد العلمية ، وتفرعت المسائل وتحددت المناهج ، كـما اتسعت جوانب المعرفة وتعددت ضروبها ، فلم تقتصر على علـوم الـدين مـن فقـه ، وتفـسير وغيرهمـا ، أو اللغـة مـن : نحـو وصرف ، ولكنهـا امتـدت إلى الفلـسفة والرياضيات والفنون والصناعات وغيرهـا ممـا نقلتـه الترجمـة العربيـة مـن الـتراث اليوناني والروماني، ولولا هذه الترجمة لاندثرت هذه المعارف اليونانية وضـاعت إلى الأبد ، ولما أصبح للحضارة العربية في هذا العـصر بالـذات فـضلان عـلى أوروبـا : فضل الحفاظ على منجزات العقل اليوناني ، وفضل إنجازات العقل العربي وإضافاته الكثيرة والمهمة .

حدث هذا على الرغم من النكسات التي أصابت المسلمين نتيجة الفتنة الكبرى التي حدثت بعد مقتل الإمـام عـلى كـرم الله وجهـه ، وابنـه الحـسين رضى الله عنـه واستيلاء الأمويين على الحكم ... على الرغم من ذلك فقد بقي المسلمون أقـوى أمـة

في العالم القديم .. حيث حققوا حضارة عربية إسلامية متماسكة ونبيلة ، في الوقت الذي ضعفت فيه دولة الروم الشرقية في العلم وشئون الحياة ، ودب الخلاف بين الكنيسة الشرقية والغربية حول الصور والتماثيل ، وذلك بتأثير الإسلام الذي له موقف منذ ذلك . كذلك تأخر العلم في أوروبا ، تأخرا واضحا لم ينقذه من كبوته سوى اللجوء إلى العلم الإسلامي .

في الجانب الآخر .. الأمة الإسلامية التي ما برحت تلملم ما حدث فيها من تمزق وتفرق بعد الفتنة والانقسام إلى شيعة وسنة ، فقد نشأت اختلافات بين الفرق الإسلامية خاصة في النظرة إلى إصلاح النكسة الرجعية في الحكم .. فقد كان لأهل السنة رأي ، وللشيعة رأي ، وهذه وتلك كل منهما تختلف عن آراء المرجئة والخوارج والمعتزلة ، وقد واجهت محاولات الإصلاح تحديات كثيرة ، حتى كادت أن تحقق نتيجة الخلط بين الدين والسياسة . ضاعف من هذه التحديات عوامل أخرى لعل أبرزها : نفور العامة من التجديد العلمى في الدولة العباسية ، ربما لعدم استيعاب هؤلاء العامة لأهداف هذا التجديد ، وعامل آخر هو ظهور الطبقات بين عامة الشعب ، كفوارق دعا الإسلام إلى تذويبها ، ولعل هذا كان نتيجة لأسلوب ونظام الحكم الذي أرساه الأمويون ، وعامل ثالث يتجسد في بقايا استبداد وطغيان حكام بني أمية وامتلاكهم وسيطرتهم على أرزاق الناس .

لكن على الرغم من ذلك ، فقد اتسم هذا القرن بالتحضر والازدهار كما قلنا ، ويكفي أن يكون من بين ولاته العلماء والأدباء من بني العباس ، وفي مقدمتهم : الخليفة العالم المأمون ، ووالده الخليفة هارون الرشيد . كما اتسم بتواجد رموز من آل البيت ، أبرزها السيدتان الجليلتان : سكينة بنت الإمام الحسين منشئة أول ندوة ثقافية في الإسلام إن لم يكن في التاريخ ، وشقيقتها السيدة فاطمة النبوية راوية الحديث ومفسرته، تلك التي كان يرجع إليها المهتمون به من العلماء والفقهاء والمفسرين على اعتبار أنها مصدر موثوق لقربها من المصدر الأساسي لهذا الحديث

وهو جدها لأبيها النبى ﷺ .. وعلى الرغم من هذه الصفحات التى تعنى بالتجديد الذي قام به الرجال ، إلا أن هاتين السيدتين لهما من الفضل والعلم والأدب ما قد يفوق غيرهما من الرجال لاعتبارات كثيرة تتضح في الحديث عنهما . وإلى جانبهما نفيسة العلم والمعرفة : السيدة نفيسة .

كذلك اتسم هذا القرن بتواجد أربعة من أئمة السنة هم : إمام أهل المدينة المنورة : مالك بن أنس ، وإمام مصر : الليث بن سعد ، والإمام أبو حنيفة النعمان ، والإمام الشافعي ، وطبيعي أن يكون لكل واحد من هؤلاء الأئمة الأجلاء آراء وأفكار لم تقتصر على عصرهم ، وإنما امتدت لتشمل بقية القرون حتى تصل إلى اليوم. إلى جانب إمام أهل الشام : الإمام الأوزاعي .

كذلك .. برز اهتمامهم باللغة العربية وآدابها ونحوها في هذا القرن ، فلم يكن الاهتمام منصبا على الفقه فحسب ، بل إنه امتد فشمل هذه اللغة : نحوها وصرفها، وهو دور عظيم قام به : «عبد الرحمن بن هرمز» الذي لا يذكر علم النحو دون أن يذكر اسمه على اعتبار أنه كان من الأوائل الذين يرجع إليهم الفضل في وضع قواعد هذا العلم الذي نتعامل معه ونستخدمه إلى اليوم .

وباختصار .. فإن هذا القرن غني بمجدديه الذين نلتقي بأفكارهم التجديدية على الصفحات التالية :

السيدة فاطمة النبوية

السيدة فاطمة النبوية ، كريمة الإمام الحسين رضى الله عنه ، وحفيدة كل من الإمام علي والسيدة فاطمة الزهراء، وشقيقة السيدة سكينة رضي الله عنهم أجمعين.

كانت من مجددي القرن الثاني للهجرة حيث توفيت عام ١١٠هـ ، هذه السيدة الهاشمية الشريفة تعرف في التاريخ الإسلامي، بأنها : راوية الحديث الشريف، والأحداث الجليلة.

ففى مقدمة الأسماء التى استند إليها «ابن إسحاق» في روايته للسيرة النبوية التى كتبها ابن هشام لتعرف باسمه، (سيرة ابن هشام) كان اسم السيدة فاطمة بنت الإمام الحسين ابن الإمام علي رضي الله عنهم.

وتحت عنوان: «إسنادات الرجال» تجد اسم السيدة فاطمة ضمن الأسماء القليلة الموثوق بها ، والتى رجع إليها كل من ابن إسحاق وابن هشام، فاستندا إليها في روايتهما السيرة النبوية.

ويستوقفنا استنادهما إليها - بالمجلد الأول في رواية حديث مهم عن جدتها أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها... ومصدر أهمية هذا الحديث أنه كان في اختبار الوحى الذي لجأت إليه أم المؤمنين لتدرك بفطرتها الأنثوية: أهو ملك من السماء أم شيطان من الأرض... ولتقولها للنبى ﷺ، عن جبريل عليه السلام: «ابن عم، اثبت وأبشر، فوالله إنه لملك من السماء ، وما هذا بشيطان من الأرض»، وهو ما تناولته الكتابات الحديثة عن القديمة، والخلف عن السلف، وسيظل كذلك مصدرا موثوقا به إلى قيام الساعة، والسبب أن راويته هي السيدة فاطمة النبوية، الموثوق بها في الحديث.

وفي المجلد الثاني للسيرة النبوية، نجد ابن إسحاق وابن هشام يستندان إليها في رواية تاريخية على جانب كبير من الأهمية، لأنها كانت هي الأساس الذي ترجع إليه كل الكتابات الخاصة بالتاريخ بسرية زيد بن حارثة إلى مدين، حيث نقلت عن رسول الله ﷺ، قصة إرساله لهذه السرية، والهدف من ذلك، وهو ما يتناوله العلماء والمؤرخون المحدثون عن الأقدمين، والخلف عن السلف.

والشواهد كثيرة على رواية هذه السيدة الطاهرة للحديث النبوي، والوقائع التاريخية الجليلة كما هو مسجل في بطون الكتب .. ولكننا قصدنا سيرة ابن هشام ؛ لأنها هي الأصل وهي الأساس الذي تستقي منه كل الكتابات : قديمها وحديثها، وقائع السيرة وأخبارها، للتأكيد على أن هذه السيدة الطاهرة كانت من المصادر الأولى الموثوق بها في الوقت نفسه لرواية الحديث الشريف، والوقائع التاريخية كمصادر لا غنى عنها لمعرفة الإسلام في صورته الأولى التي جرت بها ألسنة رجاله ونسائه من السلف الصالح.

هذه إشارة سريعة إلى مكانة السيدة فاطمة النبوية رضي الله عنها في التاريخ الإسلامي، فماذا عن سيرتها الذاتية؟ وماذا عن العصر الذي وجدت فيه؟ وماذا عن موقفها من الفتنة الكبرى التي أطاحت بوحدة الدولة الإسلامية ، فحولتها إلى شيع وأحزاب؟ وماذا عن مأساتها مع غيرها من أبناء وبنات النبي في كربلاء؟

تمر القرون متتالية، بما فيها من أجيال وسنين وأيام، ولا تزال الصورة التي تجري بها أقلام الكتاب، وتدور حولها ألسنة الرواة كما هي.. صورة مأساة كربلاء، يوم استشهاد الإمام الحسين رضي الله عنه، ومعه كثير من آل البيت النبوي الشريف، في هذه البقعة من الأرض ، ولا يبقى من أبناء الحسين سوى : علي زين العابدين رضي الله عنهما وجمع من النساء، تتقدمهم السيدة زينب شقيقة الإمام الشهيد رضي الله عنهما.

ومن بين تلك النساء كانت السيدة فاطمة النبوية ابنة الإمام الشهيد... وكانت يومئذ شابة صبية تحتمي بعمتها السيدة زينب رضي الله عنهما، ولا منجى ولا مغيث من بطش الأمويين سوى رحمة الله.

لكن .. من هذه السيدة الطاهرة التي تربت في كنف والدها الإمام الحسين، فنهلت من مورده، وتحلت بخلقه، وكانت صورة منه في شجاعته وجرأته، وصلاحه وتدينه، وتعبده وتقواه وورعه؟!

ومتى ولدت؟ وفي أي عصر من عصور الخلافة الإسلامية؟ أعصر جدها الإمام علي؟ أم عصر عمها الإمام الحسن؟ أم عصر مغتصب الخلافة معاوية ابن أبي سفيان؟

وكيف كانت في سنوات عمرها الأولى؟ وما اكتنف هذه السنوات من أحداث جسام بالنسبة للأمة الإسلامية عامة، وبيت النبي ﷺ خاصة؟ وغيرها من أسئلة حار لها الكثير من الباحثين والدارسين والمؤرخين.

من هي السيدة فاطمة النبوية؟ يكفي أن نقول إنها بنت الإمام الحسين من زوجته الرباب ، والشقيقة الصغرى للسيدة سكينة ، والكبرى للإمام علي زين العابدين، وحفيدة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وفاطمة الزهراء رضي الله عنها، أي إنها من بنات وأبناء النبي ﷺ وكفى!!

ومتى ولدت؟ في هذا الأمر تتوارد الكتابات وتختلف .. ومن هذه الكتابات (طبقات الأتقياء) التي يقول صاحبها ابن حيان: إنها لحقت بربها وهي في السبعين من عمرها .. ومن ناحية أخرى تجمع كل الروايات والمصادر التاريخية على أنها توفيت عام ١١٠ هجرية... وإذا تأملنا ما قاله ابن حيان، وما أورده المؤرخون والرواة كان ميلادها عام ٤٠ هجرية.

وإذا كانت الأحداث قد دارت في هذا العام – وهو الأرجح بشهادة أكثر الباحثين والدارسين – فإن مكان مولدها كان في مدينة الكوفة في أخريات أيام خلافة جدها علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، الذي استشهد في شهر رمضان من العام نفسه (٤٠ هـ) كما هو ثابت في التاريخ الإسلامي.

نقول: ولدت هذه السيدة الطاهرة قبل استشهاد الإمام علي وليس بعد استشهاده، لأن أحداث هذه السنة لم تذكر أن الإمام الحسين قد رزق بمولودة من زوجته الرباب بعد استشهاد أبيه الإمام علي كرم الله وجهه.

وقد سماها والدها الإمام الحسين فاطمة تيمنا باسم أمه فاطمة الزهراء، ولعلها كانت أشبه الحفيدات بها، كما كان أبوها أكثر الناس شبها برسول الله ﷺ.

وهكذا .. ولدت هذه الطفلة في فترة الخلافة التي حفلت بالمؤامرات والدسائس، والتي انتهت بمقتل رابع الخلفاء الراشدين على بن أبي طالب، واختيار المسلمين لابنه الحسن رضى الله عنه أميرا للمؤمنين ليبقى فترة تتراوح بين الثلاث أو الأربع سنوات .. حدث قبلها وبعدها ما حدث من أمور جسام.

وهنا.. تفتحت عيناها طفلة صغيرة على أحداث جسام، وبالقطع كانت لا تعيها ولا تدركها، حتى لو أعيدت على مسامعها مرة ومرات، إذا .. كيف تدرك مثلا هذا الصراع القائم بين عمها أمير المؤمنين الإمام الحسن وبين معاوية بن أبي سفيان، وهي لم تزل طفلة صغيرة تخطو أولى خطواتها في الحياة؟!.

وكيف تدرك ابنة الأربع سنوات أن عمها أمير المؤمنين قد تنازل عن حقه في الخلافة لمعاوية بعد اتفاق الطرفين على أن يخلف الإمام الحسن معاوية بعد وفاته؟!

وكيف تدرك هذه الطفلة معنى رحيل أبناء الإمام على كرم الله وجهه عن الكوفة إلى مدينة رسول الله، ثم إجبارهم على الرحيل من مدينة جدهم إلى مكة بعد وفاة الإمام الحسن مسموما؟!

هل تدرك فاطمة الطفلة البريئة التي لم تبلغ العاشرة من العمر. أن معاوية قد تآمر مع زوجة العم «الجعد» لقتل العم، كي يتحلل من الاتفاق الذي أبرمه مع الإمام الحسن، والذي ينص صراحة على أن تئول الخلافة بعد معاوية إلى صاحبها والمتنازل عنها الإمام الحسن؟! كيف تدرك هذه الطفلة أن معاوية صنع ما صنع بسبط رسول الله ﷺ وريحانته كي ينكص بالعهد ويتنكر له حتى يخلو له ولأبنائه وأحفاده الخلافة .. فتتحول من خلافة قامت على الشورى إلى ملك عضوض يتوارثه الأبناء والأحفاد؟! ولم ينتظر معاوية طويلا حتى ينسى الناس فعلته، بل راح في جرأة واجتراء يسعى إلى أخذ البيعة لولده «يزيد»، ليكون أميرا للمؤمنين بعده.

لا شك أن هذه الطفلة التي شبت وأصبحت فتاة وضيئة – كما تصفها الروايات – قد سمعت بهذه الأحداث، وأدركت منها القليل ولم تع منها الكثير، إلا أنها أحداث على أي حال لا يمكن أن تمحوها الذاكرة على مر الزمن.

غير أن الحدث الأكبر الذي رأته وأدركته ووعته، ولم تنسه قط طيلة حياتها هو يوم مقتل والدها الإمام الحسين في كربلاء.

يا له من حدث جلل في يوم رهيب..!! أبدا ما نسيته فاطمة، أو أي واحدة من آل البيت .. لأنه فجيعة تذكر بالعويل والنحيب، وكيف لا؟!.. وقد سقط أمام أعينهم في حومة الوغى الفارس الشجاع وسيفه مضرج بدمائه .. سقط صريعا في سبيل نصرة الحق .. سقط وحوله بنوه وذووه، ومن بعده سقط الجميع، حتى امتلأت ساحة كربلاء بجثث الأطهار الذين ما تخاذلوا عن نصرته، فهم على قلة عددهم وتواضع عتادهم .. لم يفكروا لحظة في تركه وحيدا لأشباه الرجال، وإنما وقفوا معه في حياته مدافعين مجاهدين، وصدموا بعد استشهاده وبقوا يظللون جثته الطاهرة بالسيوف والحراب .. ولكن هيهات أن تستمر سيوف وحراب قليلة أمام جحافل

كثيرة من الجبناء غلاظ القلوب .. لقد خر صريعا كما خر الجميع الواحد تلو الآخر، مفضلا أن يصبح جثة هامدة وشهيدا إلى جوار سيد الشهداء ، على أن ينعم بحياة خسيسة غير كريمة.

وهل تستطيع الابنة الشابة فاطمة أن تنسى ذلك اليوم الذي فيه علق رأس أبيها الطاهر ، وبقية رؤوس الشهداء على أعواد يطوفون بها شوارع الكوفة وطرقها ومن معهم من النساء والأطفال ، إلى حيث الطاغية ابن زياد .. ليأمر بمسيرة هذا الموكب الحزين إلى كبيرهم طاغية الأمويين الفاجر الفاسق « يزيد بن معاوية » في الشام؟!

هل يستطيع أحد من المسلمين أن ينسى هذا الموكب الذي يتقدمه الرأس الطاهر، وخلفه بنات الرسول وقد هتكت ستورهن .. وهن يسعى بهن كالسبايا .. إلى من؟! إلى أمير الغواني والخمور يزيد بن معاوية ، ليقمن في مجلسه، وتتقدمهن السيدة زينب والسيدة فاطمة النبوية رضي الله عنهما؟!

اللحظات تمر ثقيلة متثائبة، واللقاء غير عادي بين من طهرهن الله تطهيرا وبين حفيد آكلة أكباد الشهداء ، وعيون الشرفاء زائغة فيما يكون عليه مصيرهن .. بينما عيون الجبناء لا تعرف حرمة المقدسات، حتى إذا حانت نظرة من أحد رجال يزيد إلى هذا الحسن الرباني، إلى هذه الصبية الطاهرة فاطمة النبوية .. مال إليها راجيا أن تكون له، ومال على يزيد يسأله: «يا أمير المؤمنين هب لي هذه الجارية تكون جارية لي».

هكذا يقولها وقد هان كل شيء عند الأمويين، حتى أصبحت المقدسات مباحة!؟ وترتعد فاطمة ابنة العشرين وتجفل، وتأخذ بثياب عمتها السيدة زينب – رضى الله عنها – وكأنها تحتمي من نظرات ذلك الفاجر الداعر الذي يعبث بحياء من طهرهن الله تطهيرا، وأبعد عنهن الرجس... فتصيح العمة الحزينة الثكلى في قوة وعزيمة لا تستغرب من ابنة الإمام علي وشقيقة الإمام الحسين وفوق هذا حفيدة

النبي ﷺ، وتقول موجهة حديثها إلى يزيد وإلى هذا الفاجر الذي يعتبر فاطمة مجرد جارية توهب لمن يطلبها ليتلهى بها ويعبث: «كذبت ولؤمت، ما ذلك لك ولا له».

وثار يزيد عندما سمع صياح السيدة زينب، ولم يثر من قبل على نديمه الفاجر حين أراد العبث بالمقدسات والحرمات، وكبر في عينيه أن تهاجمه السيدة زينب على هذه الصورة .. ووجد نفسه يصيح فيها قائلا: «إنما أنت الكاذبة .. ولو شئت لفعلتها وذهبت فتاتك للرجل». وإذا بالسيدة زينب تقول في إصرار وعناد، وكبرياء وشموخ، وبلاغة وحكمة: «بل أنت الكاذب الشرير، وإنك لأعجز وأضعف من أن تتجاسر على ذلك .. إلا إن خرجت على ملة الإسلام وتبرأت من دين الله».

بعد هذا اليوم .. كرهت السيدة فاطمة بنت سيد الشهداء حياة الصخب والضجيج تلك التي عاشت في أتونها الرهيب، وليكفها من الماضي ما كان .. فقد اغتيل الجد بطعنة جبانة، ومات العم مسموما، ثم استشهد الأب والإخوة وأبناء العم .. فأية حياة تلك التي قدر عليها أن تعيشها في المدينة أو في مصر، حيث تسافر مع عمتها السيدة زينب رضي الله عنهما.

تعيش بقية عمرها بمصر صوامة قوامة، راوية للحديث، إلى درجة أن أخذ عنها الإمام أحمد بن حنبل، وابن ماجه، وأن يعظمها خامس الخلفاء الراشدين عمر ابن عبد العزيز ويعلي قدرها، حتى إنه حين ذكرت في مجلسه بأنها لا تعرف الشر، قال: «إن عدم معرفة السيدة فاطمة للشر جنبها الشر نفسه».

وانصرفت هذه السيدة الطاهرة بعد ذلك عن الدنيا انصرافا كليا، لقد رأت الكثير، وعرفت الكثير وأدركت الكثير، وقاست من الكثير، فماذا تريد من الدنيا؟ وماذا يبقى لها من الدنيا؟ إنها تريد أن تقبل على العبادة وأن تنصرف إلى الاعتكاف، وأن يبقى لها أن يعرف الناس مكانتها، فيبحثون عنها ويستمعون إليها عن الذي يفيد

وينفع حيث تقول ، ومن كلامها: «والله ما نال أهل السفه بسفههم شيئا، ولا أدركوا من لذاتهم إلا بعض ما نال أهل المروءات بجميل ستر الله».

ويتزوجها ابن عمها في حياة والدها الإمام الحسين رضى الله عنه، وتنجب له ثلاثة أبناء، منهم الإمام إبراهيم الجواد، وشقيقه الإمام محمد، اللذان استشهدا على أيدي بني العباس.

وقد مات عنها هذا الزوج قبل مأساة كربلاء .. وقبل أن يموت أوصاها بأن تتزوج .. وقد تزوجت بعد فترة من وفاته من حفيد عثمان بن عفان رضى الله عنه، وبعد موته امتنعت عن الزواج، حيث تقدم لها الكثيرون، فكان ردها حازما قاطعا كما تذكر الروايات – بأنها تزوجت مرتين، ومن الله عليها بالولد، فماذا تريد؟

وظلت هذه السيدة الطاهرة «فاطمة النبوية» بقية حياتها – سواء بأرض الحجاز، أو بمصر، عاكفة على العبادة، ومقبلة على الزهد، مدبرة عن الدنيا .. وكانت مثلا رائعا من أمثلة الصلاح والتقوى، والاستمساك بأهداب الفضائل والمثاليات .. وهو أسلوب غير مستبعد من آل البيت، ومنهج تتبعه غيرها من بنات جنسها على مر الزمن، ظلت بقية حياتها راوية للحديث الشريف مفسرة له، أمرا جعل رواة الحديث وكتابه يرجعون إلى أقوالها ثقة فيما تقوله. ويجعل منها واحدة من أهل التجديد .

* * *

السيدة سكينة

السيدة سكينة : كريمة الإمام الحسين ، وحفيدة كل من الإمام على والسيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنهما من مجددي القرن الثاني للهجرة حيث توفيت عام ١١٧ هـ، كانت إلى جانب كونها مرجعا في الأحاديث النبوية وتفسيرها ، كانت أول امرأة في الإسلام إن لم يكن في العالم ، تقيم ندوة أدبية يحضرها الأدباء والعلماء والفقهاء، حيث اشتهرت في تاريخ الثقافة العربية بأنها : صاحبة أول ندوة أدبية تقيمها المرأة، ويقف ببابها الرجال، وقد كان من بين هؤلاء الرجال .. فحول الشعراء في تاريخ هذه الثقافة.

ولعل حق هذه السيدة سكينة رضى الله عنها في هذا المجال قد أصبح محفوظا، ليس على مستوى الثقافة العربية فحسب، وإنما على مستوى الثقافات الأجنبية أيضا. ولعل سبب شهرة ندوة السيدة سكينة رضى الله عنها في التاريخ .. يرجع إلى مكانة وقيمة من كان يقصدها من الشعراء، وفي مقدمتهم «الفرزدق» و«كثير» و«جرير» و«جميل» و«عمر بن أبي ربيعة» إلى جانب العلماء والفقهاء، وما كان يصدر عنها من أحكام نقدية وعلمية وفقهية .. حتى كان الشاعر لا ينشر قصيدة على الناس قبل أن ينشدها داخل الندوة وتجيزها السيدة سكينة رضي الله عنها.

ولم تقتصر الندوة على الكلمة الشاعرة فحسب، وإنما امتدت إلى الاهتمام بكثير من فنون القول .. حتى إذا غطى اهتمامها الكلمة شعرا ونثرا انتقل إلى الكلمة لحنا وغناء، حيث استوعبت ندوتها الموسيقى والغناء، وكان حكمها على كل ذلك مبنيا على علم واسع، وإحساس صادق.

لكن .. لا يمكن التعرف على جوانب من هذا الدور التجديدي ، المهم في حياة العلم والفقه خاصة، والثقافة العربية عامة، دون معرفة شيء عن نشأتها الأولى في بيئة طاهرة، تجل الكلمة شعرا ونثرا، وتقدر قائليها شعراء كانوا أو كتابا أو علماء... وإذا ما تيسر ذلك فلا مناص من معرفة علاقة هذه السيدة الطاهرة بمجتمعها. وقبل كل ذلك علينا أن نتعرف على مسألة وجودها بمصر في الضريح المقام بالمسجد المعروف باسمها بالقاهرة، على ضوء ما وصل إلينا من كتابات وروايات للعلماء والمؤرخين الأقدمين منهم والمحدثين.

اختلفت الروايات في شأن وجود رفاتها الطاهر في الضريح المقام بمسجدها الموجود بحى الخليفة بالقاهرة، في الشارع المسمى باسمها. فالإمام الشعراني يذكر في طبقاته: «أنه لما دخلت السيدة نفيسة مصر كانت عمتها السيدة سكينة رضي الله عنهما المدفونة قريبا من دار الخلافة مقيمة بمصر، ولها الشهرة العظيمة».

وأيا ما تكون هذه الروايات التى تؤيد وجود الرفات الطاهر لهذه السيدة الفضلى بمصر، في المسجد الذي بناه خصيصا لها عبد الرحمن كتخدا عام ١١٧٣ هـ وكتب عليه اسمها، أو التى ترى غير ذلك، فإن الثابت الذي لم يختلف حوله المؤرخون والرواة قديمهم وحديثهم، أن هذه السيدة الطاهرة قد شرفت أرض مصر مرة أو مرتين على الأقل، وربما نزلت وأقامت في هذا المكان المقام عليه ضريحها بمسجدها بالقاهرة، وإلا فما معنى أن يقام لها دون غيرها من آل البيت هذا الضريح في هذا المسجد، في هذا المكان من القاهرة، لو لم تكن لها علاقة به سواء كانت هذه العلاقة قد تمت بالوفاة، أو بالزيارة؟!

والآن ماذا عن سيرة هذه السيدة الطاهرة؟

تقول الروايات : قديمها وحديثها، ولا تختلف في ذلك إلا في طريقة التناول:

إنه عندما طرق الإمام الحسين رضى الله عنه باب امرئ القيس بن على الكلبى ، طالبا يد ابنته «الرباب» عمت البهجة والفرحة أقطار نفسه، وكيف لا يكون كذلك؟

وهو بهذه المصاهرة الكريمة سيرتبط ببيت محمد ﷺ فأي شرف وأي عزة تطاول هذا النسب؟

إن طالب اليد هو الحسين، ريحانة رسول الله ﷺ، وابن الإمام على وفاطمة الزهراء، رضى الله عنهما... وكفى بهذا شرفا وعزة .. وطبيعى - والأمر كذلك - أن يستجيب والد العروس لهذا القادم الحبيب لتدخل ابنته «الرباب» - ذات الحسب والنسب، والأدب والحسن- بيت الحسين وتنجب له فيمن تنجب من الذكور عبد الله الذي استشهد مع أبيه في كربلاء، وعلى زين العابدين، وهو آخر من بقي من أبناء الحسين من الذكور يوم كربلاء وسكينة، وفاطمة النبوية رضي الله عنهم.

وسميت الفتاة الأولى آمنة، تيمنا باسم أم النبى ﷺ، وسميت الثانية فاطمة تيمنا بأم الحسين فاطمة الزهراء، لكن تغير اسم الفتاة الأولى إلى سكينة، حيث اعتادت أمها الرباب أن تناديها به لأسباب، منها: الاحترام والتقدير لاسم الجدة العظيمة التى أنجبت البشير النذير محمدا ﷺ، ومنها أن هذه الفتاة الصغيرة اتصفت دون بقية أخواتها بسمات خاصة: هدوء نفس، وطيبة قلب، وطول استغراق، مما جعل نفوس أهل البيت تهفو إليها وتسكن، وترتاح إلى أدبها وذكائها وتستقر.

ولعل هذا المعنى يترجمه شعر والدها الإمام الحسين رضي الله عنه:

لعمري إنني لأحب دارا تكون بها سكينة والرباب
أحبهما وأبذل كل مالي وليس لعاتب عندي عتاب

وهكذا غلب الاسم المستحدث «سكينة» على الاسم الأصلي «آمنة» ليتلاشى الأخير. ويبقى على مر الزمان «سكينة» اسما لها.

وإذا كانت السيدة سكينة ، قد نشأت في مهاد العلم والفضل، والحسب والنسب فجدها لأبيها هو الإمام على كرم الله وجهه، وأبوها الإمام الحسين، وعمها الإمام الحسن، أول أمير للمؤمنين بعد الخلفاء الراشدين الأربعة.. وأنها نشأت في

بيئة حديثة العهد بظهور الإسلام، ووثيقة الرابطة بالجد الأعظم النبي ﷺ، شديدة التمسك بهذا الدين الجديد .. فكان من الطبيعي أن تكون عابدة قانتة، حافظة لدينها.

غير أن هذه البيئة المتفردة لم تنسها سماتها المتميزة بها عن غيرها ؛ حيث بدأت شخصيتها تتبلور وهي في الثالثة عشرة من عمرها، حتى إنه لم يأت موسم الحج في العام الستين للهجرة إلا كانت هذه الفتاة قبلة الأنظار، والمثل الذي يحتذى به بين فتيات المدينة.

وفي موسم الحج – كما تنقل الروايات قديمها وحديثها – شاعت «الطرة السكينية» أو «الجمة» أو «القصة» أو «الخصلة»، فلم تبق شابة في المدينة إلا قلدتها في تصفيف شعرها، واستمرت هذه الحالة من التقليد والمحاكاة فترة من الزمن، حتى تجاوز الفتيات إلى الشباب، فراح يقلد هو الآخر هذه «الجمة السكينية» الأمر الذي انزعج له بعد ذلك معاصرها خامس الخلفاء عمر بن عبدالعزيز حين كان واليا على المدينة، فكان إذا وجد شابا يصفف جمته على الطريقة السكينية جلده، وأمر بقص شعره، مبررا ذلك بأن الإسلام لا يقبل تشبه الرجال بالنساء، حتى لو كن من أفضلهن.

ولا تعني هذه الطبيعة التي فطرها الله عليها من الحسن الذي تؤخذ له القلوب أن تكون هذه السيدة الطاهرة منصرفة عن دينها، بل على العكس، حيث كانت تصل في تعبدها إلى درجة الاستغراق التام، والانصراف الأتم عمن حولها، وهو ما يؤكده قول والدها الإمام الحسين رضي الله عنه ، وحين جاءه ابن أخيه الحسن المثنى ابن الإمام الحسن رضي الله عنهم، طالبا الزواج من واحدة من ابنتيه: سكينة، أو فاطمة، فقال له الإمام الحسين: اخترت لك فاطمة، فهي أكثر شبها بأمي فاطمة الزهراء، أما سكينة فغالب عليها الاستغراق مع الله، فلا تصلح للرجال.

وإلى جانب استغراقها وتعبدها - وهذا أمر طبيعي كما قلنا - كان لها استغراق آخر يترجمه اهتمامها بالأدب وتذوقها له. ولعل هذه السمة اكتسبتها من البيئة المحيطة بها عامة، تلك التي كانت بيئة أدب، ومكانتها كابنة للإمام الحسين وحفيدة الإمام علي، وما كانا عليه - كل منهما - من بلاغة في القول وفي الأدب، ربما يميزها عن آل بيت النبي ﷺ.

هذه البيئة في عموميتها وخصوصيتها، كانت تعنى بالشعر خاصة، وتزداد العناية بهذا الجانب من الأدب، حيث عمدت الدولة الأموية - بعد ذلك - إلى جعله وسيلة من وسائل الدعاية لسياستها الغريبة، فانصرف الناس إليه، فكان من الضروري أن يهتم الطرف المقابل، وهو المناهض لبني أمية من آل البيت، بندوة السيدة سكينة (رضي الله عنها) كضرب من فنون القول.

لم يكن غريبا والأمر كذلك، أن يكون مجلس السيدة سكينة رضي الله عنها - أو ندوتها فيما بعد - عامرا بالأدب، منصرفا إلى الشعر منه خاصة، وهي خاصية لعلها تكون جديدة، على الأقل بعد الإسلام، حتى إن الدكتورة «سعاد ماهر» أشارت إليها بالقول: «وإذا كان الغرب يفتخر بندوات نسائه العلمية والأدبية في القرن الثامن عشر، فإن للعرب أن يتباهوا ويفخروا بندوات نسائه في الأندلس، التي سبقت الغرب بعدة قرون، فقد كانت ندوات «ولادة بنت المستكفي» في القرن الحادي عشر الميلادي مجمع العلماء وأهل الأدب والفن. على أن ندوات « ولادة » لم تكن الأولى من نوعها في الإسلام، فقد سبقتها في القرن الثاني الهجري ندوات نسائية في المدينة المنورة. وكان أول من سنها هي السيدة «سكينة» بنت الإمام الحسين، ثم تبعتها بعد ذلك غيرها من سيدات قريش.

ويؤكد هذا القول ما امتازت به ندوة السيدة « سكينة » من العلم الغزير، والأدب الرفيع، والشعر الرقيق، حيث تسجل الروايات أنه كثيرا ما اجتمع

ببابها فحول شعراء العربية ، وفي مقدمتهم « جرير ، والفرزدق ، وجميل ، وكثير وابن أبي ربيعة ». خصوصا في موسم الحج من كل عام، طالبين أن تأذن لهم بإنشاد أشعارهم من وراء حجاب.

لقد وصلت إلى أسماع الحاضرات في ندوة السيدة «سكينة» رضى الله عنها أشعار مجنون ليلى، وتشبيب جميل بثينة، وغزل كثير عزة، وهجاء جرير للفرزدق، وروايات عمر بن أبي ربيعة الخيالية، وكانت صاحبة الندوة هى الأخرى قائلة للشعر، راوية وناقدة له، خبيرة بضروبه وأوزانه وقوافيه، وذواقة لمعانيه عارفة لأقدار قائليه.

وتحدثنا الروايات القديمة، وهى ما تنقله الكتابات الحديثة، من أن عددا من الشعراء كان بينهم الفرزدق، وجرير، وجميل. اتفقوا فيما بينهم على حضور ندوة السيدة «سكينة» ليحتكموا إلى رأيها فيمن يكون أشعرهم ، وأنشد كل منهم شعره حتى جاء دور جميل، فأنشد قائلا:

لكل حديث بينهن بشاشة وكل قتيل بينهن شهيد
يقولون جاهد يا جميل بغزوة وأي جهاد غيرهن أريد؟
وأفضل أيامي وأفضل مشهدي إذا هيج بي يوما وهن قعود

وهنا قالت السيدة «سكينة» رضى الله عنها لجميل: أنت الذي جعلت قتيلنا شهيدا، وحديثنا بشاشة، وأفضل أيامك يوما تدافع عنا وتجاهد، ولم تتعد ذلك إلى قبيح... أنت أشعر الموجودين.

وفي ندوة أخرى حضرها «الفرزدق» مع غيره من الشعراء، بعد أن أتم حجه، فبادرته السيدة «سكينة» رضى الله عنها قائلة: من أشعر الناس؟ وكأنها بذلك تذكره بما تم في ندوة سابقة، فتثيره إلى قول ما عنده فأجابها الفرزدق باعتزار: أنا. قالها في حضور الشعراء: فقالت له أشعر منك جرير إذ يقول:

بنفسي من تجنبه عزيز علي ومن زيارته لمام
ومن أمسي وأصبح لا أراه ويطرقني إذا هجع النيام

وأسمعها الفرزدق بعض أشعاره، وكانت بالفعل عظيمة المستوى، ولكن السيدة «سكينة» رضي الله عنها كانت تريد أن تستثير لديه جانب التحدي، فقالت له: صاحبك جرير أشعر منك، حيث يقول:

لولا الحياء لها جني استعبار ولزرت قبرك والحبيب يزار
لا يلبث القرناء أن يتفرقوا ليل يكر عليهمو ونهار

فقال الفرزدق: والله لئن أذنت لي لأسمعنك ما هو خير منه... وأسمعها ما هو أجود مما قال من قبل. فقالت له – وكأنها تصر على أن يأتي بأحسن ما عنده:

جرير أشعر منك إذ يقول:

إن العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله إنسانا

كانت تعلم جيدا القدرة الشاعرية للفرزدق، ولكنها كانت ترغب في استثارته بمقارنته بمن ينافسه ، وهو جرير. فهي في الحقيقة لا تتحيز لواحد منهما دون الآخر .. وإلا فما معنى أن تنقد شعر جرير في ندوة أخرى، وتقول عن أحد أبياته وهو:

طرقتك سيدة القلوب وليس ذا حين الزيارة فارجعي بسلام

بأنه ينقصه الكثير من آداب اللياقة، والخروج على حسن السلوك، حيث يرد أي طارقة، فما بالنا لو كانت هذه الطارقة هي سيدة القلوب؟! وقد لاقى حكمها عليه رضا من الحاضرين.

واشتملت ندوة السيدة «سكينة» على الموسيقى والغناء إلى جانب الشعر. فقد كانت لها أذن تميز بين ضروب الألحان، الأمر الذي جعل اثنين من أكبر المطربين في زمانهما – وهما «الغريض» و «ابن سريج» يحتكمان إلى رأيها فيمن يلحن أفضل، حيث قال لها ابن سريج: سيدتي، إني كنت قد صنعت لحنا وحسنته فنازعنيه الغريض، فأردنا أن نحتكم إليك... فأي منا قدمته فينا تقدم.

فقالت: هاته... فبدأ يغني هذا البيت كما لحنه:

وعرجي علينا ربة الهودج إنك لا تفعلي تحرجي

فقالت: هاته أنت يا غريض... فغناها الغريض كما لحنها. فعادت وقالت لابن سريج: أعده. وسألت الغريض أن يفعل ففعل. فسكتت لحظات قالت بعدها: ما أشبهكما باللؤلؤ والياقوت في أعناق الحسان. لا يدري أيهما أحسن؟!

وهكذا كانت السيدة «سكينة» رضي الله عنها حتى قال عنها ابن خلكان: «بأنها سيدة نساء عصرها، وأحسنهن أخلاقا، وأكثرهن تعبدا، وأرفعهن نسبا وقال عنها الأصفهاني: «إن امرأة تختار على السيدة سكينة لمنقطعة النظير».

ولعل في هذه القصة ما يترجم ذلك ويتجاوزه إلى وصف سمات شخصيتها بوجه عام ، والقصة تقول: إنه كان يتوافد على ندوة السيدة سكينة رضي الله عنها شريفات المدينة، وبنات أعرق بيوتها، ولقد حدث ذات مرة أن قالت بنت عثمان ابن عفان رضي الله عنه تفخر بأبيها: «أنا بنت الشهيد». وسكت الجميع، فلم تجسر إحداهن أن ترقى بمقام أبيها، أو أخيها، أو زوجها، إلى مقام أمير المؤمنين وصهر النبي وصاحبه، ثالث الخلفاء عثمان بن عفان. غير أن الأنظار اتجهت إلى صاحبة الندوة السيدة سكينة رضي الله عنها انتظارا للرد، أولا: للحكم على ما قالت ابنة عثمان رضي الله عنه... وثانيا: لأنها كانت وقتئذ هي سيدة المدينة بلا منازع. ولكنها

ظلت صامتة لا ترد ولا تعلق على قولة بنت عثمان، حتى حان موعد الصلاة وارتفع صوت المؤذن: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله»، وعندئذ نظرت السيدة سكينة رضي الله عنها إلى بنت عثمان رضي الله عنه، وقالت موجهة الحديث إليها: «أهذا أبي أم أبوك؟» وسكتت بنت عثمان رضي الله عنها ؛ لأنها لم تجد ردا عليها.

تلك هي السيدة «سكينة» بنت الإمام الحسين، رضي الله عنهما، خير مثال للمرأة العربية المسلمة المؤمنة المثقفة... التي استطاعت أن تخلد اسمها على مر الزمن.

* * *

عبد الرحمن بن هرمز

يؤمن عبد الرحمن بن هرمز - أحد مجددي القرن الثاني الهجري، حيث توفي عام ١١٧ هـ - بأن المعرفة الموسوعية تتطلب من الراغب في جمعها إمكانية خاصة، لعلها تعني القدرة على جمع شتات العلوم المختلفة وتدوينها، ثم تبويبها وتقديمها للمتلقي في شكل ميسر يستطيع أن يتعامل معه، ويستفيد منه دون مشقة أو عناء.

ولهذا .. يفترض في الإنسان - صاحب المعرفة الموسوعية - أن يكون ملما قدر الإمكان بأطراف المعارف، حتى يستطيع أن يفاضل ويختار بينها ، ليصل في النهاية إلى الإفادة الصحيحة التي تفيد وتغني طالب العلم .. كما يفترض فيه أيضا التمتع بعقلية تحليلية تركيبية في الوقت نفسه .. تستطيع أن تحلل الأشياء للخروج منها بنتائج يمكن ضمها إلى بعض ؛ للوصول إلى معنى مطلوب، وقبل كل شيء يفترض فيه أن يكون واسع الأفق، متعدد الثقافة.

وتاريخ الثقافة العربية الإسلامية غني بأصحاب هذه المعارف الموسوعية الذين يمكن أن يقال عن الواحد منهم بأنه جامعة، أو دائرة معارف، أو موسوعة متحركة .. ومن هؤلاء الذين يتمتعون بالمعارف الموسوعية : عبد الرحمن بن هرمز.

فلا يذكر شيء عن علم النحو إلا ويذكر عبد الرحمن بن هرمز، على اعتبار أنه كان : من الأوائل الذين يرجع الفضل إليهم في وضع هذا العلم، الذي لا تزال العربية لغة وأدبا تعمل به.

ولا يذكر ذكر «الفقه» إلا ويذكر اسم عبد الرحمن بن هرمز أيضا، على اعتبار أنه كان من المتفقهين في هذا العلم، حيث صاحب أبا هريرة، وأخذ عن ابن عباس ،

وسمع الحديث عن أبي سعيد الخدري، كما تتلمذ عليه الإمام مالك إمام المدينة، وغيره من التابعين الذين كانوا فيما بعد أسسا لهذا العلم.

ولا يذكر علم الأنساب إلا ويذكر عبد الرحمن بن هرمز، على اعتبار أنه كان من العلماء الثقات في هذا العلم، وإليه ترجع كثير من المصادر لمعرفة أنساب العرب، كأساس للتاريخ لا غنى عنه.

هذا العالم الفقيه عبد الرحمن بن هرمز الذي (كنى بأبي داود) واشتهر (بالأعرج القرشي)، كان يرتبط بأسرة بنى هاشم في قريش برابطة الولاء، حيث كان ولاؤه لربيعة بن عبد المطلب عم النبى ﷺ، وكان من التابعين الأجلاء في هذه السلسلة الذهبية التي بدأت بالنبي الكريم.

هذا التابعى الجليل ولد بالمدينة المنورة، وعاش فيها وقتا كانت المدينة فيه مجتمعا للخاصة من علماء المسلمين... من الصحابة والتابعين، وتابعى التابعين، فكانت فرصة له أن يتتلمذ كما يذكر «ابن سعد» في (طبقاته) - على عدد كبير من الصحابة الذين أدركهم، فسمع الحديث ورواه عن أبي هريرة، وأبي سعيد الخدري وابن عباس، ومعاوية بن أبي سفيان، وغيرهم.

على أن «السيوطى» يذكر في كتابه (حسن المحاضرة) أن عبد الرحمن بن هرمز صاحب أبا هريرة ، وحفظ القرآن على يديه، وأخذ القراءة عنه زمنا طويلا، فكانت نتيجة ذلك هذه الشخصية المتعددة الجوانب في العلوم.

ولهذا توسع في التفسير، وعرف الكثير من أحكام علم الحديث، إلى درجة أن «الذهبى» يقول في : (تاريخ الإسلام) عن عبد الرحمن بن هرمز بأنه: «كان ثقة ثبتا[1].. عالما». وهذا حكم للذهبي لا يمكن إغفاله أو تجاهله لدقة هذا المؤرخ وموضوعيته.

(١) الثبت : الحجة .

وكذلك توافر ابن هرمز على دراسة القرآن وقراءته، فكان من الثقات المثبتين يلجأ إليه الناس للقراءة عليه لاطمئنانهم إلى حفظه وقراءته، وعلمه ومعرفته، ولهذا تكاد جميع المراجع التاريخية تجمع في حديثها على وصف عبد الرحمن بن هرمز بالمقرئ المحدث، تقديرا له ولعلمه المتعدد الذي تفرد به دون غيره في زمانه.

وليس مصادفة أن يذكر بأنه من العلماء بالأنساب .. وكل المراجع تؤكد هذه الصفة ، ومنها ما يقوله عنه الذهبي في تاريخه: «وله خبرة بأنساب قريش»، وأن يقول السيرافي عنه :«كان أعلم الناس بأنساب قريش»، مما جعله المرجع الموثوق به في هذا الجانب من العلوم.

وليست مصادفة أيضا أن يذكر اسمه حين يذكر علم النحو، فقد كان أول من وضع علوم اللغة العربية والنحو، وإن كانت بعض المراجع والروايات تنسب هذا إلى أبي الأسود الدؤلي .. صحيح أن الأخير له الفضل في منهجة هذا العلم ، ولكن لا يمكن أن ينسينا هذا فضل من بدأ به، فحق الريادة محفوظ له.

من هذه المراجع التي تنسب أسبقية وضع علم النحو لابن هرمز .. ما رواه السيوطي: « كان ابن هرمز أول من وضع علم العربية». وذكره الزبيدي في طبقات النحويين واللغويين قائلا عن ابن هرمز: «كان أول من وضعوا أبوابا، وأصلوا أصولا للنحو واللغة، وعلى ضوئها سار من جاء بعده».

وكان ابن هرمز الأب الأول والأستاذ للإمام مالك ، كما يقول الإمام ذلك عن نفسه. ومما يذكر عن ابن هرمز أنه كان بين تلاميذه: جم التواضع، لا يغضب إذا نقده أحدهم ، معللا ذلك بقوله لتلاميذه : « دخل في بدني ضعف ، ولا آمن أن يكون قد دخل في عقلي قبل ذلك» . وهذه أعظم رسالة للأستاذ، أن يعد تلميذه ، لا ليواصل الطريق من بعده، ولكن لكي يعبده ويطوره حتى يكون أفضل من الأستاذ .

وأما عن مجيئه إلى مصر واستقراره بالإسكندرية، فيذكر «البلاذري» في كتابه (فتوح البلدان): «أن عبد الرحمن بن هرمز الأعرج القارئ خرج إلى الإسكندرية من المدينة المنورة مرابطا، ومات بهذه المدينة – الإسكندرية – عام ١١٧ للهجرة».

وعن ذلك يقول أيضا شمس الدين الذهبى في كتابه (تاريخ الإسلام): «انتقل ابن هرمز في آخر أيام حياته إلى مصر، وتوفي غريبا بالإسكندرية سنة سبع عشر ومائة على الصحيح».

وإذا كانت هذه المراجع القديمة تؤكد وصول ابن هرمز إلى الإسكندرية ووفاته بها، فإن المراجع الحديثة – وفي مقدمتها كتاب الدكتور «جمال الشيال» (أعلام الإسكندرية)، وكتاب الدكتورة «سعاد ماهر» (مساجد مصر)، وهما من المصادر الحديثة الموثوق بها – يؤكدان أن ابن هرمز جاء الإسكندرية ومات في المكان الذي يقام عليه مسجده برأس التين في الإسكندرية.

ومن نافلة القول أن نذكر : أن الكثيرين في مصر قد استفادوا من علم ابن هرمز، حتى ولو كانت الفترة التي قضاها فيها قبل وفاته قصيرة، فمع قصرها كان علمه الواسع زادا كافيا لكل طالب علم، سواء في اللغة، أو الفقه، أو التاريخ.

* * *

الإمام أبو حنيفة

الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت ، رأس المذهب الحنفى ، من مجددي القرن الثاني الهجري حيث ولد عام ٨٠هـ وتوفي عام ١٥٠هـ ، وكما تذكر دائرة المعارف الإسلامية ومؤرخوه أنه كان عبدا مجلوبا من كابل بأفغانستان إلى الكوفة بالعراق وأطلق سراحه واحد من قبيلة عربية من تيم الله بن ثعلبة ، وغدا هو وأحفاده على هذا من موالي تلك القبيلة ، وكان أبو حنيفة يلقب أحيانا : «التيمي» . ولا نعرف عن حياته إلا القليل جدا ، فلا نعرف غير أنه عاش في الكوفة خزازا يبيع الخز . ومن المؤكد أنه حضر مجالس الدرس لحماد بن سليمان المتوفى سنة ١٢٠هـ الذي كان يدرس الفقه الديني في الكوفة . وربما حضر بمكة في ذهابه للحج مجالس عطاء بن أبي رباح المتوفى سنة ١١٤هـ أو ١١٥هـ . ويجب أن نتداول بحذر الإثباتات الطويلة التي دونها من ترجموا له عن الثقات الذين يقدر أنه سمع عنهم الأحاديث ، وبعد موت حماد أصبح أبو حنيفة عمدة الثقات في مسائل الفقه بالكوفة والممثل الرئيسى لمدرسة الكوفة الفقهية . وقد جمع حوله عددا كبيرا من خاصة المريدين الذين لقنهم مذهبه . ولم يل القضاء أبدا ومات في السجن ببغداد حيث دفن ، وبنيت على قبره قبة . ولا يزال الحى الذي حول الضريح يسمى الأعظمية ، وكان (الإمام الأعظم) هو اللقب الشائع لأبي حنيفة .

وقد سيقت قصة سيرته على أن الخليفة العباسي المنصور أشخصه إلى عاصمته الجديدة التي بناها وأراد أن يوليه قضاءها ، وأنه سجنه لإبائه الصريح ، وثمة رواية أخرى تقول إن الوالي الأموي «يزيد بن عمر بن هبيرة» الذي كان عاملا لمروان الثاني

عرض عليه من قبل قضاء الكوفة وضربه بالسياط مرة ومرة ليقبل ، ولكن دون جدوى . وهذه وشبيهاتها من قصص قصد بها إلقاء ضوء على نهاية أبي حنيفة في السجن ، وأن الإمام يجب ألا يكون قاضيا . وإن بدا هذا غريبا في نظر الأجيال المتأخرة . والصحيح - فيما يرجح - أنه قد يكون ورط نفسه بتلميحات ليس فيها احتراس وقت فتنة العلويين ، فتم ترحيله إلى بغداد وسجن هناك .

وأبو حنيفة نفسه لم يضع تصنيفا ما في الفقه ، ولكنه ناقش تلاميذه آراءه وأملاها عليهم . وبعض مصنفات تلاميذه هي من الأصول المعتمدة للمذهب الحنفي ، وخاصة كتاب : (اختلاف أبي حنيفة وابن أبي ليلى) و(الرد على سير الأوزاعي) لأبي يوسف ، و(الحجج) ، و(شرح موطأ مالك للشيباني) إذ إن القول بأن أبا حنيفة تلقى عن حماد يرجع أساسا إلى آثار أبي يوسف وآثار الشيباني ، وإن الموازنة بين أبي حنيفة وسلفه تمكننا من أن نقدر ما حققه أبو حنيفة في تطوير الفكر الإسلامي فقها وعقيدة .

والفكر الفقهي لأبي حنيفة أرقى كثيرا من هذا الذي كان لمعاصره «ابن أبي ليلى» (المتوفى سنة ١٤٨هـ) الذي كان يلي قضاء الكوفة في زمانه . أما عنه وعن التفكير الفقهي المعاصر في الكوفة بصفة عامة ، فإن أبا حنيفة كان له فيما يظهر شأن الواضع لأسس النظرية التي حققت تقدما كبيرا في الفكر الفقهي الاصطلاحي ، وبعده عن القضاء جعله أقل تقيدا من ابن أبي ليلى بمقتضيات التطبيق كما كان في الوقت نفسه أقل تثبيتا لبعده عن الاسترشاد بما يفيده من يمارس القضاء . ومذهب أبي حنيفة بصفة عامة مذهب متكامل متسق من حيث منهجه ، وفيه الكثير جدا من الأفكار الفقهية الجديدة الصريحة حتى إن جزءا كبيرا منها قد وجدت فيه مآخذ أنكرها تلامذته ، ولا يتميز فكره الفقهي بأنه كان أوسع أفقا في أساسه من فكر معاصريه الأكبر منه سنا ، والأكثر أخذا به من فكرهم فحسب ، بل كان أيضا أرقى اصطلاحا في أحكامه وتحوطه ولطف نظرته .

والطابع الغالب في الفكر الفقهي بصفة عامة عند أبي حنيفة هو الإمعان في التعقل ؛ مما يجعل هذا التفكير يشوبه في كثير من الأحيان شيء من الأناة والتأرجح مع قلة عناية بالتطبيق . وقد اعتمد أبو حنيفة على الرأي والقياس ، لم يجاوز في ذلك الحد المألوف عند مدارس الفقه الأخرى في زمانه ، وقد جيء على نهج ممثلي المذاهب الأخرى ، كآراء أهل المدينة ، فكان مثلهم قليل الميل إلى العدول عن مذهب السلف بالنسبة لأحاديث الآحاد ، وهي الأحاديث التي بدأت تشيع في الفقه الإسلامي في حياة أبي حنيفة في النصف الأول من القرن الثاني للهجرة .

ولما أصبحت هذه الأحاديث من المسلمات لدى المعنيين بالتحديث بفضل ما جاء به الشافعي بعد ذلك بجيلين اتخذ أبو حنيفة – لأسباب وقعت اتفاقا – كبشا للفداء على اعتبار أنه يعارض الأحاديث النبوية ، كما اتخذ كذلك كبشا للفداء لقوله بالرأي في المذاهب الفقهية القديمة ، ولكثير من الأقوال التي نسبت إليه وصادفت هوى من نفوس الناس الذين جاءوا من بعده .

وقد كان لأبي حنيفة من حيث هو متكلم أيضا ، أثر كبير ، فهو أصل مأثور عام من الفقه العقائدي ، يعنى عناية خاصة بأفكار جماعة المسلمين والمبدأ الذي يوحدها وهو السنة ، وبجمهور المؤمنين الذين يتبعون طريقا وسطا ويتجنبون التطرف ، ويعتمد على الكتاب أكثر من اعتمادهم على البراهين العقلية ، وهذا المأثور يمثله كتاب (العالم والمتعلم) الذي ينسب خطأ إلى أبي حنيفة ، و(الفقه الأبسط) الذي نشر بين تلامذة أبي حنيفة ثم في أعمال المتكلمين الحنفيين بعد ذلك .

وقد أراد أعداء أبي حنيفة المتأخرون أن ينتقصوا من قدره، فلم يكتفوا بأن رموه بالآراء المسرفة المستقاة من أقوال المرجئة ، بل تجاوزوا ذلك فرموه بجميع أصناف المبادئ المارقة التي لا يمكن أن يكون قد اعتنقها . مثال ذلك : أنهم نسبوا إليه القول بأن النار ليست خالدة ، وهو قول من أقوال الجهمية التي عارضها أبو حنيفة

صراحة في الفقه الأكبر ، كما نسبوا إليه أنه قال إن الخروج على الحكومة ليس فيه ما ينافي الشرع ، وهو مذهب يخالف مخالفة مباشرة ميول أبي حنيفة كما يتبين ذلك من (العالم والمتعلم) ، بل قد رمي بأنه من المرجئة الذين يؤمنون بالسيف (وهو أمر مخالف لشيمته) ، وربما كان هذا الاستنتاج اعتمد فيه على رأيه أيام فتنة النفس الذكية .

وقد برز من أعقابه في الفقه ابنه حماد وحفيده إسماعيل قاضى البصرة والرقة المتوفى سنة ٢١٢هـ (٨٢٧م) . ونذكر من تلاميذه الأكثر أهمية «زفر بن الهذيل» المتوفى سنة ١٦٥هـ (٧٨١ – ٧٨٢م) و«أبا يوسف» و«أبا مطيع البلخي» ، و«الشيباني» و«أسد بن عمرو» المتوفى سنة ١٩٠هـ (٨٠٦م) و«حسن بن زياد اللؤلئي» المتوفى سنة ٢٠٤هـ (٨١٩ – ٨٢٠م) ، وكان يقدره أعظم التقدير من بين المحدثين «عبد الله ابن المبارك» المتوفى سنة ١٨١هـ (٧٩٧م) .

وبازدياد سلطان الأحاديث جمع أتباعه ابتداء من يوسف بن أبي يوسف أحاديث الرسول التي استشهد بها أبو حنيفة في تدليله الفقهي ، وحين أخذت الأخبار الموضوعة في الشيوع ، وهو مظهر خاص من المظاهر التى شابت الفقه الإسلامى زاد أيضا عدد الأحاديث الموضوعة إلى أن قام أبو المؤيد محمد بن محمود الخوارزمى المتوفى سنة ٦٥٥هـ (١٢٥٧م) بجمع خمس عشرة رواية مختلفة من الأحاديث التي رواها أبو حنيفة في كتاب واحد ، هو (جامع مسانيد أبي حنيفة).

* * *

الأوزاعـي

فقيه أهل الشام : الإمام الأوزاعى، أحد مجددي القرن الثـاني للهجـرة، المتـوفى عام ١٥٧ هجرية والذي كان حجـة وعلامـة في الفقـه والحـديث والعلـم في عـصره ومكانه بالـشام، والمعـروف في التـاريخ الإسـلامى باسـم عبـد الـرحمن بـن عمـرو الأوزاعي نسبة إلى الأوزاع وهي : بطن من بطون همدان.

تلقى ثقافته الأولى باليمامة ، فسمع من يحيى بن أبي كثير وغيره من مشايخ أهـل اليمامة. ونال اهتمام المستشرقين في الشرق والغرب ؛ حيث قال عنه المستشرق الألماني «شخت»: إنه ولد في الشام وتلقى علومه في اليمامة ، وهذه الروايـة تطـابق مـا قالـه (ابن سعد) في الطبقات وعليها نعتمد، وقد مارس بعض الوظائف لـدى الحـاكم في اليمامة، وبعدئذ جاء إلى بيروت حيث دفن في (قرى حنتوس) قرب بيروت، وقـبره اليوم معروف.

ولعلنا نقرأ معا ما كتبه الأستاذ «زهدي يكن» إلى جانب غيره من المصادر لمزيد مـن التعـرف على هـذا المجـدد الذي علم نفسـه، فلم يكـن أعقـل منـه، ولا أروع ولا أعلم، ولا أفصح، ولا أوفر، ولا أحلم، ولا أكثر صمتا منه، ما تكلم بكلمـة إلا كان المتعين على من سمعها من جلسائه أن يكتبها عنه من حسنها.

وقد وصفه «ابن سعد» فقال: ثقة، مأمون، صادق، فاضل، خير، كثير الحديث، في العلم والفقه ، حجة. وقد أدرك خلقا من التابعين وغيرهم، وحـدث عنـه جماعـة من السادات، «كمالك بن أنس» و«سفيان الثوري»، وأثنى عليه غير واحد مـن كبـار الأئمة منهم «الزهري»، وهو من شيوخه. وأجمع الناس على عدالته، وأمانته.

ويكفينا شهادة ما قاله عنه مالك رضي الله عنه: «كان الأوزاعي إماما يقتدى به». وقال «سفيان بن عيينة»: «كان الأوزاعي إمام أهل زمانه، وقد حج مرة، ودخل مكة، وسفيان الثوري أخذ بزمام جمله، ومالك بن أنس يسوق به، والثوري يقول: أفسحوا للشيخ، حتى أجلسه عند الكعبة، وجلسا بين يديه يأخذان عنه». إن هذه الرواية تدل على مكانة الأوزاعي لدى فقهاء زمانه وعلمائه. وأما ما رواه البعض أن مالكا والأوزاعي قد تذاكرا مرة في المدينة من الظهر حتى صليا العصر ومن العصر حتى صليا المغرب، فغمره الأوزاعي في المغازي، وغمره مالك في الفقه، نعتقد أن هذا مبالغة من الرواة كما حققه المستشرق «شخت» في أحد مباحثه عن الأوزاعي. وأما ما رواه يحيى القطان عن مالك: بأنه قد اجتمع عنده الأوزاعي، والثوري، وأبو حنيفة فقال مالك بعد سؤاله من يحيى عن أرجحهم بأنه الأوزاعي، فنظن أن ذلك من الروايات الضعيفة، ونأخذ بقول يحيى بن معين، بأن العلماء أربعة: سفيان الثوري، وأبو حنيفة، ومالك، والأوزاعي.

إن الأوزاعي بالإضافة إلى أنه كان إماما بالفقه، ثبتا، وحجة، كان ثقة باللغة لا يلحن، وله رسائل إلى الولاة، وإلى الخليفة المنصور الذي كان ينظر فيها ويتأملها، ويعجب من فصاحتها، وحلاوة عباراتها.

وقال «المنصور» على ما رواه «ابن كثير» في (البداية والنهاية) لسليمان بن مخلد، وهو أحظى كتابة: «ينبغي أن نجيب الأوزاعي على كتبه لنستعين بكلامه فيما كتب».

ويقول «الوليد بن مسلم» كما في (صفوة الصفوة) لابن الجوزي: «ما رأيت أحدا أشد اجتهادا من الأوزاعي في العبارة».

ومن كلامه: «عليك بآثار السلف، وإن رفضك الناس، وإياك وأقوال الرجال وإن زخرفوه وحسنوه».

وقال أيضا: «اصبر على السنة، وقف حيث يقف القوم، وقم ما قاموا، وكف عما كفوا، وليسعك ما وسعهم».

وقال: «العلم ما جاء عن أصحاب محمد، وما لم يجئ عنهم فليس بعلم».

وقال: «إذا أراد الله بقوم شرا فتح عليهم باب الجدل، وسد عنهم باب العمل».

وهذا يدل دلالة واضحة ناصعة بأنه من : رجال الحديث الذين يكرهون القياس بما فيه نقاش وجدل.

ويشير الأستاذ «زهدي يكن» إلى مذهب الأوزاعي فيذكر : كان أهل الشام يعملون بمذهبه، وكان قاضي الشام أوزاعيا، أي على مذهب الأوزاعي، وكان السوريون يفتون بأقواله ؛ فصح عليه لقب فقيه أهل الشام.

وقد انتقل مذهب الأوزاعي إلى المغرب، ومنه إلى الأندلس الإسلامية إلى أن اضمحل وحل محله مذهب الإمام مالك الذي أدخله إليها أبو عبد الله زياد ابن عبد الرحمن القرطبي، فقيه الأندلس الذي سمع من مالك وكتابه «الموطأ»، وله عنه في الفتاوى كتاب معروف في منتصف القرن الثالث للهجرة (التاسع للميلاد) وبقي في سوريا معمولا به حتى نهاية القرن السادس الهجري .

ومن مؤلفات الأوزاعي التي أملاها على تلامذته كثيرة قد أحصى منها صاحب «الفهرست» كتاب (السنة) في الفقه وكتاب (المسائل الفقهية)، والأرجح أن هذين الكتابين لم يبقيا على أصلهما. وأما (مسند الأوزاعي) الذي أشار إليه «حاجي خليفة» فيحتمل أنه قد نسب إليه بتاريخ لاحق كما هو في مؤلفاته الأخرى.

وفي تونس هناك مسند للإمام «الأوزاعي» مخطوطا بجامع القيروان.

أما آراء «الأوزاعي» فقد أشير إليها بتفصيل في الرد على «سير الأوزاعي»، لأبي يوسف: كذلك نرى أثرا لهذه الآراء في كتاب «الأم» للشافعي، وفيه مناقشات

لآراء الإمام أبي حنيفة. وقد عثر في القرن الحادي عشر للهجرة (السابع عشر للميلاد) على كتاب (سير الأوزاعي) وضعه أحد تلامذته. وبصورة عامة: فإن آراء الإمام الأوزاعي تمثل السنة التقليدية في الفقه الإسلامي.

وكانت للأوزاعي مكانة لدى الخلفاء والحكام، وكانوا لا يؤخرون له طلبا، وقد تشفع في السجناء السياسيين المعتقلين في بيروت إلى الخليفة المنصور كما رواه ابن أبي حاتم، فقبلت شفاعته. وهو من ناحية السياسة كان في غاية الحياد بعيدا عن أجواء السياسة محترما ومكرما، فلم يداهن الأمويين ولم يتملق العباسيين.

وأما قصة مقابلة الإمام الأوزاعي لعبد الله بن علي، عم الخليفة العباسي السفاح الذي أجلى بني أمية عن الشام فهي - بنظر المحققين - قصة خيالية. وخلاصة هذه القصة للفائدة:

لما دخل عبد الله بن علي دمشق، بعد أن أجلى بني أمية عنها، طلب الأوزاعي، فتغيب عنه ثلاثة أيام ثم حضر بين يديه. قال الأوزاعي: «دخلت عليه وهو على سرير وفي يده خيزرانة، والمسودة عن يمينه وشماله، معهم السيوف مصلتة، وأيضا الغمد الحديد، فسلمت عليه فلم يرد، ونكت (نكت الأرض : ضربها بالعصا) بتلك الخيزرانة التي في يده ثم قال: «يا أوزاعي ما ترى فيما صنعناه من إزالة أيدي أولئك الظلمة عن العباد، والبلاد؟، أجهاد ورباط هو؟». فقلت:

«أيها الأمير، سمعت يحيى بن سعيد الأنصاري يقول، سمعت محمد بن إبراهيم التيمي يقول، سمعت علقمة بن فاص يقول،سمعت عمر بن الخطاب يقول: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه**».

فنكت بالخيزرانة أشد ما ينكت ، وجعل من حوله يقبضون أيديهم على قبضات سيوفهم ، ثم قال : «يا أوزاعي ، ما تقول في دماء بني أمية؟» فقلت : «قال رسول الله ﷺ : **لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث، النفس بالنفس والثيب الزانى، والتارك لدينه المفارق للجماعة**»[1].

فنكت بها أشد من ذلك، ثم قال: ما تقول في أموالهم؟ فقلت : «إن كانت في أيديهم حراما فهي حرام عليك أيضا، وإن كانت حلالا فلا تحل لك إلا بطريق شرعي».

فنكت أشد ما كان ينكت قبل ذلك ثم قال : «ألا نوليك القضاء؟». فقلت:

- «إن أسلافك لم يكونوا يشقون علي في ذلك، وإني أحب أن يتم ما ابتدأوني به من الإحسان». فقال: «كأنك تحب الانصراف؟» . فقلت: «إن ورائي حرما، وهن يحتجن إلى القيام عليهن وسترهن، وقلوبهن مشغولة بسببي».

قال الأوزاعي: انتظرت رأسي أن يسقط بين يدي، فأمرني بالانصراف، فلما خرجت، إذا برسوله من ورائي، وإذا معه مائتا دينار، فقال: يقول لك الأمير : استنفق هذه، وتضررت منها، وإنما أخذتها خوفا.

هذا .. ولما رحل الأوزاعي عن دمشق، نزل بيروت مرابطا بأهله وأولاده. قال الأوزاعي: وأعجبني في بيروت أني مررت بقبورها ، فإذا بامرأة سوداء في القبور، فقلت لها: أين العمارة؟ فقالت: «إن أردت العمارة فهي هذه» وأشارت إلى القبور، وإن كنت تريد الخراب، فأمامك، وأشارت إلى البلد.

ولقد اختلفوا في سنة وفاته ، فمنهم من قال سنة ١٥٠ هـ ، وقال العباس ابن الوليد البيروتي: توفي يوم الأحد أول النهار لليلتين بقيتا من صفر سنة ١٥٧ هـ

(1) البخاري/ باب الديات/ 6 .

(٧٧٤م) وهذا التاريخ هو الذي اتفق عليه الجمهور وهو الصحيح، وقد عاش سبعا وستين عاما، ودفن حيث هو الآن..

ورثاه بعضهم بالأبيات الآتية:

جاد الحيا بالشام كل عشية ... قبرا تضمن لحده الأوزاعي
قبر تضمن منه كور شريعة ... سقيا له من عالم نفاع
عرضت له الدنيا فأعرض مقلعا ... عنها بزهد أيما إقلاع

وينبهنا الأستاذ «زهدي يكن» إلى أن هذه هي سيرة فقيه أهل الشام، الإمام الأوزاعي الذي كان من أكرم الناس، وأسخى الناس، ما أمسك شيئا من دراهم ولا اقتنى من عقار ولا غيره، ولا ترك يوم مات سوى سبعة دنانير كانت جهازه، وكان ينفق ما دخل عليه في سبيل البر، وعلى الفقراء، وعلى المساكين.

هذه سيرة فقيه الشام الذي دخلت تفاصيل مذهبه في عالم الإهمال، وعالم النسيان. وأما ما نراه في الطبقات الكبرى لابن سعد، وفي تقدمة المعرفة، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم الرازي، وحلية الأولياء لابن نعيم، وتاريخ دمشق لابن عساكر، وفي تهذيب الأسامي للإمام النووي، وتذكرة الوعاظ للذهبي، والبداية والنهاية لابن كثير، وتهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني، والمنظم لابن الجوزى، فإنها لا تغني شيئا، لعدم احتوائها على آراء الأوزاعي ومذهبه بالتفصيل كما حوت كتب المذاهب الأخرى.

غير أننا عرفنا بعض آرائه في المراجع التي ذكرناها قبلا، ككتاب (الأم) للشافعي، وكتاب: (الرد على سير الأوزاعي) لأبي يوسف. وإنما هذا نزر يسير.

ومن الغريب.. أن يختفي هذا الصرح العلمي - أي مذهب الأوزاعي - الذي انتشر في سوريا وفي المغرب حتى كان المذهب الوحيد فيه وفي الأندلس الإسلامية،

وأن لا يتوافر العلماء على حفظ مؤلفاته وآثاره لضمها إلى مجموعة الآثار التي تركها لنا السلف .

إن هذا الإهمال من رجالنا في دراسة سير عظمائهم، يمتد مع الأسف إلى دراسة الشريعة الإسلامية نفسها، تلك الشريعة الغنية بنظمها ومتانة قواعدها، والتي كفلت ضبط علاقات الناس وسلوكهم أجيالا طويلة، بلغ في خلالها الفقه الإسلامي ذروته من البحث، وعمق التفكير ودقة الأسلوب، سواء في ذلك القواعد المدنية والأحوال الشخصية والقضايا الجزائية.

إن هذا البناء العلمي المتين الدقيق الذي ساد العالم الإسلامي ونظم أحوال شعوبه، وضبط علاقات أفراده، في عصر كان فيه الظلام مخيما على العالم خلال القرون الوسطى، لم ينل نصيبه من البحث والدراسة في بدء العصور الحديثة من جهود العلماء أو رجال القانون خاصة العرب منهم.

ولعل في رجالنا من تتجه نيته : لإحياء تراثنا الفقهي - ومنه مذهب الإمام الأوزاعي - فيظهر في أسلوب يتفق دائما مع البحث العلمي الجديد، وعسى أن تتحقق الآمال بعون الله وتوفيقه.

* * *

الإمام الليث

في قرية متواضعة من قرى دلتا النيل بمصر، تسمى: «قلقشنده» من أعمال محافظة القليوبية الآن، وتبعد عن القاهرة بما لا يزيد على العشرين كيلومترا، ولد الإمام الليث بن سعد أحد مجددي القرن الثاني الهجري أو بالتحديد سنة ثلاث وتسعين من الهجرة. حيث قدر لهذا الوليد أن يفتح عينيه على غنى وثراء غير عادي لأبيه، الذي كان يملك مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية التي تدر عليه الكثير من المحاصيل والفواكه .. ولهذا نشأ هذا الطفل في بحبوحة من الرزق، وسعة من المال، إلى جانب هذا: التزام الأسرة بالمحافظة على تعاليم الإسلام، ومنها أن يعم خيرها ورزقها على الناس، حيث يكون هذا الخير وذلك الرزق فيه النفع للجميع.

ولعل ذلك جميعه جعل والده لا يضن على الفتى بالتعليم، فلا يقتصر تعليمه على ما يتلقاه من قراءات بسيطة في إقليمه، وإنما يرسله إلى أكبر دور العلم في زمانه: جامع عمرو بن العاص بالفسطاط، حيث كان يعج وقتئذ بالعلماء والفقهاء، ومن بينهم التابعون وتابعو التابعين حتى يتلقى الفتى علما وفقها على أيدي أعلم أهل زمانه.

كان العلم وقتئذ ينقسم في جملته وتفصيله بين رجلين: رجل يتمسك بنصوص القرآن والسنة، ويفتي في أمور الدنيا بما يجد في هذين المصدرين من نصوص منطبقة تماما على ما يريد، فإن لم يجد آثر السلامة بعدم الإفتاء في شيء. ورجل آخر كان يقرأ الكتاب والسنة ويتدبرهما تماما، وبعد ذلك يجتهد حين كانت تواجهه أمور مستحدثة في بيئة جديدة غير البيئة التي ظهر فيها الإسلام ونشأ، أو حالات طارئة لم تكن من قبل .. هنا كان على هذا الرجل أن يجتهد قياسا على ما جاء في القرآن والسنة.

طبيعي .. أن يلحظ الليث بن سعد ذلك ويتأمله ؛ ليخرج بنتيجة على قدر كبير من الأهمية ، مؤداها أن المتمسكين بالنصوص لا يخرجون عنها ، حيث يتشددون تشددا قد يستحيل معه مواجهة مطالب الحياة المستحدثة التي لم يرد في حكمها نص قطعي ، وأصحاب الرأي والاجتهاد يتساهلون تساهلا قد يدعو أحيانا إلى الخطإ في الحكم ، أو إحداث الاضطراب في الفتيا .

وهنا رأى طالب العلم الليث بن سعد أن يستقل بالنظر الخاص به ، انطلاقا من واقع الحال الذي يعلن عن أن المتشددين بالنصوص يعتمدون على الآية الكريمة : ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾[1] . وهذا أمر حق .

وأن أصحاب الرأي والاجتهاد يقولون : إن الرسول ﷺ قد اجتهد، وصحابته اجتهدوا في حياته . وهذا حق أيضا .

هنا سأل طالب العلم الليث بن سعد نفسه : إذا .. لماذا الغلو في الاقتصار على النص أو الاعتماد على الرأي ؟ خصوصا وقد تبين أن النصوص ليست ظاهرا فحسب ، أو كلمات فقط ، بل هي روح ، لها دلالات وعلل ، ومعان ، والإنسان قد شرفه الله عز وجل بنعمة التفكير ، فعليه أن يفكر ويتدبر ، ويتأمل أسرار الكلمات ، ظاهرها وباطنها . ولن يتأتى ذلك إلا للذين يتقنون اللغة العربية ، ويقفون على أسرار بلاغتها . وهنا يستطيع الواحد منهم أن يدرك ويفهم ما تهدف إليه النصوص من ناحية وتعنى به في ظاهرها وباطنها من ناحية أخرى ، ثم إن للأحاديث تفسيرات كثيرة لما جاء به في القرآن الكريم . وتفصيلا لما أجمله هذا الكتاب ، وتباينا لما خفي منه على المدارك والعقول من ناحية أخرى .

(1) النساء : ٨٣ .

لذلك كله .. رأى الليث بن سعد أن يتخذ له مذهبا وسطا بين أهل النصوص وأهل الرأي والاجتهاد ، وأخذ يذيع عنه هذا المذهب بين زملائه من طلاب العلم في جامع عمرو بن العاص في مواجهة الشيوخ الذين يمثلون الاتجاهين معا . والتف الطلاب حوله وكان من العجيب أن يحدث هذا الشاب وهو في مقتبل العمر ، حيث لم يصل بعد إلى سن العشرين ، والأكثر أن يحدث أكثر من هذا ، حيث بدأ الناس يستفتونه - ثقة فيه - فيفتيهم ، ويرضون عن فتياه .

حتى إذا خرج للحج والعمرة ، وزار المدينة المنورة ، ومكة المكرمة ، والتقى هناك بعلماء الإسلام وفقهائه الوافدين للحج من كل حدب وصوب في الدولة الإسلامية المترامية الأطراف وتبادل معهم الرأي والمشورة ، عندئذ تبين له أنه على صواب فيما هو يفكر فيه ، فالإسلام يجل العقل ويقدر منجزاته .

وفي الحجاز ، يلتقي بالإمام مالك بن أنس رضي الله عنه ، وتبدأ بينهما علاقة فكرية لم تنته إلى آخر حياتهما ، فقد كانا في عمرين متقاربين إلى جانب أنهما كانا يتلمسان حثيثا الطريق إلى العلم والتفقه في الدين ، الليث بن سعد في مصر ، ومالك ابن أنس في الحجاز .

ويعود « الليث » إلى مصر ، ويبني دارا كبيرة بالفسطاط بجوار مسجد عمرو ابن العاص ، وكان لهذه الدار نحو عشرين بابا ، ملأ غرفها الكثيرة بكل ما استطاع أن يصل إليه من خيرات الدنيا إلى جانب الكتب ، وفتح هذه الدار لطلاب العلم وأصحاب الحاجات والفقراء والمساكين وكان يقوم الليل إلا قليلا ، حتى إذا أقبل الفجر خرج على فرسه إلى مسجد عمرو بن العاص لحضور الحلقات وحفظ الدروس ، وبعد أن يفرغ من درسه وبحثه وصلاته وعبادته كان يرجع إلى عمله ليظل مستغرقا فيه ، حتى إذا أقبل العصر ارتدى أجمل ثيابه وتعطر وتطيب ومشى في الحدائق والأسواق مستمتعا ما شاء له الاستمتاع حتى يرجع إلى داره ليجد من

يستفتيه في أمر دينه فيفتيه ، وهكذا كانت حياته موزعة بين العمل والعبادة والدرس والفتيا .

وسمع إمام المدينة مالك بن أنس بما يصنعه صديقه إمام أهل مصر الليث ابن سعد ، فكتب إليه رسالة يعاتبه فيها ويرد عليه في رسالة مماثلة ، والرسالتان تشتملان على آراء ومواقف مختلفة في أمور عديدة بين هذين العالمين الجليلين ، لكن على الرغم من ذلك فقد جاءتا آية مشرقة من آيات الحوار العف الذي يحتاج إليه فكرنا الديني في كل زمان ومكان .

وحسبنا أن نتحرى من الرسالتين سجلهما ابن القيم الجوزية في كتابه : (أعلام الموقعين) بعض العبارات القصيرة ، التي تكشف لنا عن هذا الأدب الرفيع بين العلماء ، والذي نعرفه اليوم بأدب الحوار .

من جملة ما كتب الإمام مالك للإمام الليث بن سعد : « بلغني أنك تأكل الرقاق وتلبس الرقاق وتمشي في الأسواق » .. فرد عليه الإمام الليث بقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾[1] .

ثم يرد إمام مصر الليث بن سعد على إمام دار الهجرة مالك بن أنس على بعض ما أثاره من مسائل فقهية كان قد أفتى بها في مصر ، فيقول الإمام الليث : « وإنه بلغك أني أفتي بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندكم وإني يحق على الخوف على نفسي لاعتماد من قبلي على ما أفتيتهم به . وإن الناس تبع لأهل المدينة التي إليها كانت الهجرة وبها نزل القرآن ، وقد أصبت بالذي كتبت به من ذلك إن شاء الله تعالى ، ووقع مني الموقع الذي تحب وما أجد أحدا ينسب إليه العلم أكره لشواذ الفتيا ، ولا أشد تفضيلا لعلماء أهل المدينة الذين مضوا ولا أخذ لفتياهم فيما اتفقوا عليه مني . والحمد لله رب العالمين ولا شريك له » .

(1) الأعراف : ٣٢ .

ثم يذكر الإمام الليث الإمام مالك باجتهاد الصحابة ، حيث تفرقوا في الأمصار ، فيقول : « وأما ما ذكرت من قول الله تعالى :

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ﴾[1] .. فإن كثيرا من أولئك السابقين الأولين خرجوا إلى الجهاد في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله ، فجندوا الأجناد ، واجتمع إليهم الناس فأظهروا بين ظهرانيهم كتاب الله وسنة نبيه ولم يكتموهم شيئا علموه ، وكان في كل جند منهم طائفة ، يعلمون كتاب الله وسنة نبيه ، ويجتهدون برأيهم فيما لم يفسره لهم القرآن والسنة » .

كذلك يذكره باختلاف التابعين وأتباعهم ، فيقول : « ثم اختلف التابعون في أشياء بعد أصحاب رسول الله ﷺ ، ومنهم «سعيد بن المسيب» ونظراؤه أشد الاختلاف ، ثم اختلف الذين كانوا بعدهم ، فحضرتهم بالمدينة وغيرها ، ورأسهم يومئذ ابن شهاب وربيعة بن أبي عبد الرحمن » .

كما يذكره باختلاف هذين التابعين لأستاذهما : « وكان من خلاف ربيعة لبعض ما قد مضى ما قد عرفت ، وحضرت وسمعت قولك فيه ، وقول ذوي الرأي من أهل المدينة : « يحيى بن سعيد ، وعبيد الله بن عمر ، وكثير بن فرقد » ، وغيرهم كثير ممن هو أسن منه، حتى اضطرك ما كرهت من ذلك إلى فراق مجلسه. وذاكرتك أنت ، وعبد العزيز بن عبد الله بعض ما نعيب على ربيعة بن أبي عبد الرحمن من ذلك ، فكنتما من الموافقين تكرهان منه ما أكره .. » إلى آخر هذه الرسالة المهذبة التي اشتملت في الوقت نفسه على رد مقنع للإمام الليث على ما جاءت به رسالة الإمام مالك من مسائل ناقشها ورد عليها .

(1) التوبة : ١٠٠ .

وفي رسالة الإمام مالك ما يشير إلى أن الإمام الليث يستمتع بطيبات الحياة : «بلغني أنك تأكل الرقاق ، وتلبس الرقاق .. » . وإذا كان الأمر كذلك فهو لم يستمتع وحده بهذه الطيبات ، فقد كان يوزع المال والطعام والثياب على أهل العلم ، وكل من يعرف أنه صاحب حاجة ، فكان يطعم في اليوم ثلاثمائة من الفقراء والمساكين غير الأهل والأصدقاء . وإذا جاءه خراج مزارعه كان يجلس أمام داره وقد جعل المال في صرر حتى يوزعها جميعا .

ومن أجل ذلك ، نادى بأنه ليس من حق أحد أن يحتفظ بمال إلا إذا بلغ الناس حد الكفاية . إذ لا يستحب وقد لا يجوز أن يكون هناك أغنياء مترفون في الإسلام ويجاورهم فقراء معدمون لا يجدون حتى ما يسد أقواتهم .

وسمع الخليفة العباسى المنصور عن الإمام الليث ، فاستدعاه إلى العراق وكان لهذا الخليفة ولع كبير بالعلم والأدب برغم ما كان يحيط به من بطانة السوء ، فناظره المنصور وأعجب به وعرض عليه ولاية مصر ، ولكن الإمام الليث - وقد نذر نفسه للتفرغ للعلم - اعتذر بلباقة جعلت المنصور يقول له : « لقد أعجبتني .. أكثر الله في الرعية من أمثالك » ونصح علماء العراق أن يذهبوا إليه ويأخذوا عنه .

وحين قام أحد الولاة في مصر بهدم الكنائس اعترض عليه الإمام الليث بأن هذا ليس من تعاليم ديننا الإسلامي . وطلب منه أن يكف فورا عن ذلك ، ولما رفض الوالي كتب الإمام الليث لأمير المؤمنين بالعراق طالبا عزل هذا الوالي ، لأنه في حكم الإسلام متبرع لأمر يخالف به الإسلام ، فعزله أمير المؤمنين .

وفيما يروى : أن أمير المؤمنين هارون الرشيد جرى بينه وبين زوجته «زبيدة» حديثا قال فيه : « أنت طالق إن لم أدخل الجنة » ، وندم على ما فعل وجمع فقهاء العراق والحجاز لحل هذه المشكلة فعجزوا ، فاستدعى من مصر الإمام الليث وطلب منه الإمام أن يحضر مصحفا ففعل الرشيد . وقال له الإمام : « تصفحه

يا أمير المؤمنين حتى تصل إلى سورة الرحمن فاقرأها » ففعل الرشيد حتى إذا انتهى إلى قوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾[1] قال الإمام الليث : « أمسك يا أمير المؤمنين وقل : إني أخاف مقام ربي » فقال الرشيد ذلك . وهنا قال الإمام الليث : « هما جنتان يا أمير المؤمنين وليست بجنة واحدة » ، فقال الرشيد « أحسنت والله » .

هكذا عاش الإمام الليث بن سعد حياة عريضة فيها تعلم وعلم ، أخذ وأعطى، قرأ وكتب .. ولم ينقطع يوما واحدا عن حلقته بمسجد عمرو بن العاص .. حتى بلغ الثانية والثمانين . عندها فارق الحياة . بعد أن ملأ الدنيا وشغل الناس . ودفن في المكان المقام عليه في مسجده في شارع الإمام الليث بالقاهرة وكان قبره كالمصطبة . وفيما يذكر المقريزي بخططه : إن قبر الليث كان مصطبة كتب عليها ما نصه : « هنا الإمام الفقيه الزاهد العالم الليث بن سعد ، رضي الله عنه مفتي أهل مصر » .

* * *

(1) الرحمن : ٤٦ .

الإمام مالك

الإمام مالك بن أنس ، إمام دار الهجرة ، وأحد الأئمة الأربعة من أهل السنة (مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وأبو حنيفة عليهم رضوان الله) من مجددي الإسلام في القرن الثاني للهجرة ، حيث ولد عام ٩٣هـ ، وتوفي عام ١٧٩هـ ، عن عمر يناهز الستة والثمانين عاما .

هذا الإمام الجليل عاش ، وحدث ، ومات في المدينة المنورة حيث لم يبارحها طوال حياته ، ولذلك فقد لقب بإمام دار الهجرة تيمنا بالمدينة التي هاجر إليها النبي ﷺ وصحابته فرارا من إيذاء أهل مكة .

وطبيعي .. أن يكون للإمام مالك - وهو رأس المذهب المالكي - مؤلفات ورسائل أهمها كتابه العمدة المعروف بـ (الموطأ) ، الذي يعتمد عليه ويرجع إليه أتباع مذهبه المالكي أول مذاهب السنة انتشارا في العالم الإسلامي ، حيث كان من نتيجة ذلك : أن أصبح سائدا في الشمال الإفريقي منذ ما بعد منتصف القرن الثاني للهجرة، إلى اليوم.

والجدير بالذكر ، أن الإمام مالك يتميز عن غيره من الأئمة الأربعة بأنه تلقى العلم والفقه على أيدي كثير من التابعين رضى الله عنهم ؛ وذلك بسبب نشأته ووجوده بينهم في المدينة المنورة ، بعد رحيل صحابة رسول الله ، ولهذا فقد كانت فتاويه وآراؤه الفقهية موضع اهتمام بقية الأئمة على اعتبار اجتهاده وتجديده وآرائه تعتبر سابقة على غيره من المجددين باستثناء الذين وجدوا من قبل في القرن الأول الهجري ، والذين أشرنا إليهم في فصل سابق من هذه الموسوعة .

والتاريخ الشخصى لهذا الإمام الجليل يسجل بأنه : كان محدثا وفقيها يتحرى في الرواية والفتوى الدقة والموضوعية . خاصة في الرجوع إلى الأحاديث النبوية حيث لا يأخذها عن ذوي هوى مبتدع ، ولا من شيخ لا يعر ف ما يحمل من فقه يحدث به، ولا من سفيه ، ولا من كذاب .. وهو منهج نلمحه في ثنايا وصفحات كتابه «الموطأ»، وبقية كتاباته تلك التي جمع فيها ما تأكد من صوابه وصحته من الأحاديث النبوية الشريفة .

كذلك نلمح في كتابه : (الموطأ) وغيره من الكتابات التي تنسب إليه أنه رضى الله عنه كان يأخذ من اجتهاده وفتاويه ، بما جاء بالكتاب والسنة والإجماع ، وروايات أهل المدينة على اعتبار أنهم كانوا أقرب عهدا إلى عصر النبوة والصحابة والتابعين : يضاف إلى ذلك استخدامه الأدوات الخاصة به مثل القياس والاستحسان ومراعاة المصالح المرسلة ، إلى آخر هذه الأدوات والوسائل المستخدمة في اجتهاده وتجديده ، ولذلك فقد انتشر مذهبه في أغلب البلاد العربية والإسلامية بعد أن انتقل كعلم وفقه من المدينة المنورة في صدور أتباعه ومريديه إلى مصر ، والشمال الإفريقي ، والأندلس المسلمة ، وبعض أمم الشرق الإسلامي مثل خوارزم وبلاد ما بعد النهر وبخارى .. وغيرها وذلك لقيام هذا المذهب ببعض الحلول للمشكلات والأزمات التى نشأت بعد رحيل النبى ﷺ ، وصحابته عليهم رضوان الله ؛ نتيجة لاتساع رقعة العالم الإسلامى شرقا وغربا .. فطبيعي أن تنشأ المشكلات التي تعترض المسلم ، وما تتطلبه من حلول مناسبة .

والإمام مالك كان على غرار من سبقوا من الصحابة أو التابعين ويشبههم في أمور منها : عدم التشدد في أمور لا تقتضى ذلك ، وعدم التعصب لرأي قاله في يوم من الأيام ، وظهر ما يناهض هذا الرأي ، وربما يكون أكثر فائدة لجمهور المسلمين مقتديا بذلك بما كان يفعله صحابة رسول الله : عثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم أجمعين حين أراد الخليفة عمر رضي الله عنه ألا يوزع الأراضي

المفتوحة على المقاتلين من بين المسلمين ، وكان موضوع الخلاف مثيرا لتفسير آيات عديدة من القرآن الكريم ، وكان يحمل في طياته مصالح كبيرة لفئات يتفاوت نصيبها من الثروة والحاجة إلى المال ، فما اشتد عمر رضى الله عنه في كلمته ، وما عنف أحدا من الصحابة في عبارة ، وما انتقل الحوار من شواهد الرأي وأدلته ، إلى بواعث أصحابه ودوافعهم ، وإنما تبادلوا رأيا برأي ، وحجة بحجة ، حتى اقتنع الصحابة قائلين للخليفة عمر بعد الحوار الطويل : « نعم ما قلت وما رأيت » .

لقد اقتدى الإمام مالك بأسلوب هؤلاء الصحابة الأجلاء رضي الله عنهم ، وذلك حين حاور الإمام الليث بن سعد إمام مصر ، ولم يقل إذا كان الليث إمام مصر فأنا إمام مدينة رسول الله ﷺ ، لم يقل هذا أو غيره ... وقد جاء هذا الحوار في أثر رائع مكتوب حول عديد من قضايا الإسلام تبادلاه الإمامان في رسالتين مشهورتين ، اشتملتا على أدب رفيع ، وآية مشرقة من آيات الحوار الهادئ الراقي الذي نحتاج إلى مثله اليوم كما يقول الأستاذ الدكتور/ «أحمد كمال أبو المجد» .

يقول الإمام مالك في مطلع رسالته إلى الإمام الليث : « واعلم - رحمك الله - بلغني أنك تفتي الناس بأشياء مختلفة لما عليه الناس عندنا - أي بالمدينة المنورة - وأنت في أمانتك وفضلك ومنزلتك من أهل بلدك مصر وحاجة من قبلك إليك ، واعتمادهم على ما جاءهم منك حقيق بأن تخاف على نفسك ... » إلى أن يقول مخاطبا الإمام الليث : « فانظر رحمك الله فيما كتبت إليك ، واعلم أني أرجو ألا يكون قد دعاني إلى ما كتبت إليك به إلا النصيحة لله وحده ، والنظر لك ، والضن بك .. فأنزل كتابي منزلته ، فإنك تعلم أني لم آلك نصحا » .

ويجيب الإمام الليث بن سعد على رسالة الإمام مالك بمثلها قائلا : « قد أصبت بالذي كتبت به من ذلك .. وقع مني بالموقع الذي تحب وترضى » . ثم يقول: « وقد بلغنا عنكم شيء من الفتيا .. وقد كتبت إليك في بعضها فلم تجبني في كتابي ،

فتخوفت أن تكون قد استثقلت ذلك ، فتركت الكتاب إليك في شيء مما أنكرت ، وفيما أوردت فيه على رأيك » . ثم يمضي الإمام الليث مخالفا الإمام مالك في العديد من آرائه وفتاويه في وضوح وصراحة لا مداورة فيهما ولا مجاملة على حساب الحق إلى أن يختمها بقوله : « وأنا أحب توفيق الله إياك وطول بقائك ، لما أرجو للناس في ذلك من المنفعة ، وما أخاف من الضيعة إلا إذا ذهب بتلك مع استثنائي بمكانك ، وإن نأت الديار ، فهذه منزلتك عندي ، ورأيك في فاستقينه ، ولا تترك الكتابة إلي بخبرك وحالك وحال ولدك وأهلك ، وحاجة إن كانت لك ، أو لأحد يوصل بك ، فإني أسر وأفرح بذلك » .

أقول متفقا مع الدكتور « أحمد كمال أبو المجد » في تعليقه على الرسالتين .. ما أحوجنا إلى الاقتداء بهذا الحوار الذي تم بين هذين الإمامين الجليلين ، حتى يفيء إلى أدب الإسلام في الحوار أولئك الذين ينصبون من أنفسهم أوصياء على الناس ، الذين ساد بسببهم فكر يحاصره الخوف من إرهابهم ، فكر جوهره التشدد ، وأساسه التوسع في سد الذرائع .. حتى جمد المسلمون ، والأخطر عزف العلماء عن الخوض في كثير مما يحتاج الناس فيه إلى اجتهاد وتجديد ، حتى ماتت بسبب ذلك أفكار أو ظلت حبيسة الصدور لا تقوى على الظهور ، وأقفلت أبواب الحوار بالتي هي أحسن ، لتفتح - بدلا منها - ساحات الصراع والشغب ، ساحات ظاهرها الشفقة والرحمة ، وباطنها الضياع والعذاب .. مما كانت نتيجته ولا شك تخلف المسلمين وتأخرهم عن غيرهم ..

أقول مرة ثانية وثالثة ورابعة : ما أحوجنا إلى مثل هذا الحوار الذي جرى بين هذين الإمامين الجليلين : مالك بن أنس ، والليث بن سعد ، لما له من فائدة كبرى في حياتنا المعاصرة .

* * *

هـارون الرشـيد

أمـير المؤمـنين : هـارون الرشـيد بن المهـدي الذي ينتهـى نـسـبه إلى عبـد الله ابن العباس ، يعتبر من مجددي القرن الثاني الهجري ، حيث ولد في الري ، حين كـان أبوه المهدي أميرا عليها وعلى خراسان سنة 148 هـ ، واسـتخلف بعهـد أبيـه أمـير المؤمنين المهدي عند موت أخيه أمير المؤمنين: الهادي في 14 ربيع الأول عام 170هـ، ليلة أن ولد فيها ابنه أمير المؤمنين بعد ذلك المأمون ؛ حتى قيل إنه لم يحـدث في سـائر الزمان أن مات فيها خليفة ، وقام خليفة ، وولد فيها خليفة إشارة إلى مـوت الهـادي وتولي الرشيد وولادة المأمون - إلا في هذه الليلة بالذات .

كان الرشيد من أعظم الخلفاء ، وأجل ملوك الدنيا ، وكان كثير الغزو والحـج ، وكان له نظر في العلم والأدب ، وكان يصلي في خلافته في كل يوم مائـة ركعـة إلى أن مات ، ويتصدق من حر ماله كل يوم بألف درهم ، وكان يحب العلم وأهله ، ويعظم حرمات الإسلام ، ويبغض المراء في الدين ، ويرفض الكلام في معارضة النص .

قال الجاحظ عن الرشيد : « اجتمع للرشـيد مـا لم يجتمـع لغـيره مـن الخلفـاء ، وزراؤه البرامكة ، وقاضيه أبو يوسف ، وشاعره مروان بن حفصة ، ونديمه العباس ابن محمد عم أبيه ، وحاجبه الفضل بن الربيع أنبه الناس وأعظمهم ، ومغنيه إبراهيم الموصلي ، وزوجته زبيدة ، ومن أبنائه المأمون .. وكانت أيام الرشيد كلها خير ، كأنها من حسنها أعراس وأفراح لما كان فيها من رخاء وانتصار » .

في عام 187 هـ أتاه كتاب من ملك الروم «نقفور» ، يعلنه بـنقض الهدنـة التـي كانت قد عقدت بين المسلمين وبين الملكة «ريني» ملكة الروم . ونص هذا الكتاب :

« من نقفور ملك الروم ، إلى هارون ملك العرب .. أما بعد ، فإن الملكة التى كانت قبلى كانت أقامتك مقام الرخ ، وأقامت من نفسها مقام البيدق ، فحملت إليك أموالها أحمالا ، وذلك لضعف النساء وحمقهن ، فإذا قرأت كتابي ، فاردد ما حصل قبلك من أموالها ، وإلا فالسيف بيننا وبينك » .

فلما قرأ الرشيد الكتاب استشاط غضبا ؛ حتى لم يتمكن أحد من أن ينظر إلى وجهه دون أن يخاطبه ، وتفرق جلساؤه من الخوف ، واستعجم الرأي على الوزير ، فطلب الرشيد دواة ، وكتب على ظهر كتابه : « بسم الله الرحمن الرحيم من هارون الرشيد أمير المؤمنين ، إلى نقفور كلب الروم ، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة ، والجواب ما تراه لا ما تسمعه » .

ثم سار في اليوم التالي إلى بلاد الروم ، ولم يزل حتى نزل مدينة هرقل ، وكانت غزوة مشهورة ، وفتحا مبينا ، فطلب نقفور الهدنة ، ملتزما بخراج يحمله كل سنة فأجيب على ما طلب ، ولما رجع الرقة نقض نقفور العهد ، لشكه من كرة الرشيد في البرد ، ولم يجترئ أحد أن يبلغ الرشيد نقض نقفور العهد ، وسار إليهم بجيش كبير لتأديبهم . وقال في ذلك الشاعر أبو العتاهية أبياتا منها :

ألا نادت هرقلة بالخراب ... من الملك الموفق بالصواب
غدا هارون يرعد بالمنايا ... ويبرق بالمذكرة القضاب
ورايات يحل النصر فيها ... تمر كأنها قطع السحاب

وفي عام 189 هـ فادى الروم حتى لم يبق بمالكهم في الأسر مسلم . وفي عام 190 هـ فتح هرقلة ، وبث جيوش الإسلام بأرض الروم، وافتتح «شراحيل بن معن ابن زائدة» - أحد قواده - حصن الصقالبة ، وافتتح «يزيد بن مخلد» ملقونية ، وسار حميد بن معيوف إلى قبرص ، فهدم وحرق بيوتها ، وسبى من أهلها ستة عشر ألفا .

وفي سنة 192 هـ توجه الرشيد نحو خراسان ، فذكر « محمد بن الصباح الطبري» ، فجعل يذكره ويحادثه في الطريق إلى أن قال: يا صباح ، لا أحسبك تراني بعدها. فقلت: يردك الله سالما، ثم قال: ولا أحسبك تدري ما أحدثك عنه، فقلت: لا والله، فقال : تعال حتى أريك ، وانحرف عن الطريق ، وأومأ إلى الحراس فتنحوا ، ثم قال : أمانة الله يا صباح أن تكتم السر . وكشف عن بطنه ، فإذا عصابة حرير حول بطنه ، فقال : هذه علة أكتمها عن الناس ، ولكل واحد من ولدي علي رقيب ، فمسرور رقيب المأمون ، وجبريل رقيب الأمين ، ونسيت الثالث ، ما منهم أحد إلا ويحصي علي أنفاسي ، ويعد أيامي ، ويستطيل دهري ، فإن أردت أن تعرف ذلك فالساعة أدعو ببرذون أعجف ليزيد في علتي ، فجاءوا به كما وصف ، فنظر إلي ثم ركبه ، وودعني وسار إلى جرجان ، ثم رحل منها في صفر عام 193 هـ .

وقيل : إن الرشيد رأى في منامه (أي الحلم) أنه سيموت في طوس ، فقال : احفروا لي قبرا بها ، فحفروا له . ثم حمل في قبة على جمل ، وسيق به حتى نظر القبر ، فقال : يا ابن آدم إلى هذا ؟ وأمر قوما فنزلوا فختموا فيه ختمة بقراءة القرآن والأذكار ، وهو لا يزال في محفة على شفير القبر ، وقد تحقق الحلم بعد ذلك حين مات في طوس .

وكان من قبل قد بايع بولاية العهد لابنه : محمد سنة 175 هـ ولقبه الأمين ، وله يومئذ خمس سنين ، لحرص أمه زبيدة على ذلك ، ثم بايع لابنه عبد الله من بعد الأمين سنة 182 هـ ولقبه المأمون ، وولاه ممالك خراسان بأسرها ، ثم بايع لابنه القاسم من بعد الأخوين سنة 186 هـ ولقبه المؤتمن ، وولاه الجزيرة والثغور وهو صبي ، فلما قسم ملكه بين هؤلاء الثلاثة قال بعض العقلاء لقد ألقى بأسهم بينهم ، ونتيجة ذلك الإضرار بالرعية ، وعلق الذهبي في تأريخه : فكان هذا أول وهن جرى في دولة الإسلام من حيث الإمامة .

وقد نفذت البيعة في ولي عهده الأمين . فأتاه الخبر وهو حينئذ في بغداد ، فصلى بالناس الجمعة ، وخطب ونعى الرشيد إلى الناس وبايعوه وأصبح هو أمير المؤمنين.

وعن ملامح شخصية هارون الرشيد ، خاصة في الجانب الذي له صلة بالتجديد ، فهناك الكثير من الشهادات التي أدلى بها علماء وفقهاء زمانه ، وعلى سبيل المثال لا الحصر : قال «القاضي الفاضل» في بعض رسائله : « ما أعلم أن لملك رحلة قط في طلب العلم إلا لهارون الرشيد ، فإنه رحل بولديه : الأمين والمأمون لسماع الموطأ على مالك رحمه الله » .

وقال «سعيد بن مسلم» : « كان فهم الرشيد هو فهم العلماء . وكان مجلسه المحبب إلى نفسه هو مجلس العلماء » .

وقال «الإمام الصولي» عن «إسحاق الهاشمي» ما سجله السيوطي بكتابه (تاريخ الخلفاء) : « كنا عند الرشيد فقال لنا : بلغني أن العامة من الناس يظنون أنني أبغض الإمام علي بن أبي طالب وبنيه ، ووالله ما أحب أحدا حبي له ، ولكن هؤلاء أشد الناس بغضا لنا ، وطعنا علينا وسعيا في فساد ملكنا ، بعد أن أخذنا بثأرهم ، ومساهمتنا إياهم - يقصد الشيعة من الفاطميين - حتى إنهم لأميل إلى بني أمية منهم إلينا . فأما ولده لصلبه فهم سادة الأهل ، والسابقون إلى الفضل . ولقد حدثني أبي المهدي عن أبيه المنصور عن محمد بن علي عن أبيه ابن عباس أنه سمع النبي ﷺ يقول في الحسن والحسين : « **من أحبهما فقد أحبني ، ومن أبغضهما فقد أبغضني**» وسمعه يقول: «**فاطمة سيدة نساء العالمين غير مريم ابنة عمران، وآسية ابنة مزاحم**».

ولا شك أن في هذا القول الكثير من الصدق ، فلا شك أن بني العباس أقرب للإمام علي وبنيه رضوان الله عليهم أجمعين من بني أمية . ولكن الذي أشعل نار الفتنة والكراهية دخلاء على الطرفين ، وأسباب أخرى ليس هنا مجال بحثها .

ومن أمثلة اهتمام الرشيد بالعلماء وتقريبهم إليه : أنه كان لا يتحرج من أن يطلب منهم النصح والمشورة . وعلى سبيل المثال لا الحصر : قال ابن الجوزي : « قال الرشيد لشيبان : عظني ، قال له : لأن تصحب من يخوفك حتى يدركك الأمن ، خير لك من أن تصحب من يؤمنك حتى يدركك الخوف ، فقال الرشيد : فسر لي هذا . قال شيبان: من يقول لك أنت مسئول عن الرعية فاتق الله ، أنصح لك ممن يقول لك : أنتم أهل البيت مغفور لكم ، وأنتم في قرابة نبيكم عليه الصلاة والسلام. العصمة لكم » .

والحق .. أن من أسباب ومبررات اختيار الرشيد مجددا في القرن الثاني الهجري كما يذهب بعض العلماء ، وفي مقدمتهم السيوطي : أن الدولة الإسلامية في عهده ازدهرت ازدهارا مشهودا له ، وأن رقعتها اتسعت شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، مع التقدم الحضاري الذي عم هذه الدولة في كل أقطارها .

* * *

السيدة نفيسة

السيدة نفيسة رضى الله عنها من بين مجددي القرن الثاني الهجري ، فقد توفيت عام ٢٠٨ هجرية عن عمر يناهز الثلاثة والستين عاما، وولدت عام ١٤٥ هـ أي قبل منتصف القرن الثاني للهجرة بخمس سنوات ، وقد كان المسلمون وقتئذ أقوى أمم العالم، وإن كان قد أثر فيهم ما أصاب الإسلام من نكسة، مصدرها أن الدولة قد حادت عن نظام الشورى، فتحول نظام الحكم بها في عصر بنى أمية من خلافة راشدة، إلى ملك عضوض، يتوارثه الأبناء عن الآباء.. فترة من الزمن.

وهذا ما كان يؤخذ على بنى أمية – من قبل المؤرخين – على الرغم من حفاظهم على البلاد التى دخلت حظيرة الإسلام من الصين شرقا، إلى المحيط الأطلنطى غربا، ومن الهند جنوبا إلى فرنسا شمالا، ومن بعدهم جاء خلفاء بنى العباس، فكانوا أعظم قوة، وأبعد همة؛ فقد امتازوا على الأمويين بأنهم لم يكن فيهم عنجهية تتجافى بهم عن الاستفادة من علوم ومعارف غيرهم، وتجعلهم يجمدون على ما ورثوه عن آبائهم، حتى لم تكد تظهر هذه الدولة العباسية إلا أخذت تعمل على أن يكون للدولة الإسلامية «عظمة» علمية وأدبية وفكرية تضاهى عظمتها السياسية، ففتحت أبواب التجديد في العلم، والمعرفة، والفلسفة، على مصاريعها .. حيث نظرت بعين التقدير إلى ما كان عند الشعوب القديمة غير العربية من علوم وفلسفات ومعارف، فبذلت قصارى جهدها في نقلها إلى اللغة العربية... وقد ابتدأ ذلك في عهد ثاني خلفائها أبي جعفر المنصور .. ليستمر في عهد الذين أعقبوه من الخلفاء العباسيين، حتى جاء المأمون فأربى في ذلك على من سبقوه، حيث أقبل على طلب العلم والفلسفة والمعرفة إقبالا يشهد له بالكثير من الفضل.

لقد أتحف الخليفة المأمون في سبيل العلم والفلسفة والمعرفة ملوك القسطنطينية بالهدايا النفيسة، وكانوا قد زهدوا في علوم وفلسفات أجدادهم من اليونانيين، فأرسلوا إليه ما عندهم من كتب، اختار لها المأمون أشهر المترجمين، وأمرهم بنقلها إلى العربية، ليرغب الناس في قراءتها، حتى تنتشر بين المسلمين، ويصيروا بعد ذلك أساتذة العالم في هذه العلوم والفلسفات والمعارف، وذلك حين أصبحت لهم حضارة عربية إسلامية ، وصلت إلى أوج من الكمال يوم استكملت في هذا القرن ما كان ينقصها من العلوم والفلسفات والمعارف، وظهر فيها المشتغلون باللغة بجانب المشتغلين بالعلوم الدينية والأدبية التي كانوا قد برزوا فيها من قبل من القرن الأول الهجري.

ومع بداية هذا العصر المزدهر بعلومه وسياساته وثقافاته ، ولدت السيدة نفيسة بمكة عام ١٤٥ هجرية، وتفتحت عيناها طفلة صغيرة على حقيقة باهرة، هي أنها تعيش في رحاب ما تركه الجد الأعظم محمد ﷺ من قيم ومبادئ، تعاليم وقواعد رفيعة سامية.. فأبوها «الإمام حسن الأنور» ابن الإمام زيد الأبلج ابن الإمام الحسن ابن الإمام علي والسيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنهم.. هذا الأب الكريم النسب صار إماما يتطاير اسمه بين أرجاء الأمة الإسلامية بما يحمل من الألقاب، وما يتصف به من صفات، فهو شيخ الشيوخ، وشيخ بني هاشم، وكبير آل البيت في زمانه، والتابع العالم، والعابد الحكيم، والقطب المعلم .. الذي يتلقى عنه التلاميذ والمريدون العلم والفضل، وهو إلى جانب هذا المرجع الأخير الذي يرجع إليه حين يغيب عن الأذهان هدي الصحابة رضوان الله عليهم.

وطبيعي .. أن تدرك السيدة نفيسة الأحداث التي كانت تتعلق بمركز آل البيت في نهاية عصر الدولة الأموية، وبداية الدولة العباسية. كما أدركت عن قرب فترة الود والصفاء الانتقالية التي قامت بين العلويين من آل البيت، وبني عمومتهم من العباسيين، أيام كان البيتان متحدين في مواجهة خصمهم المشترك والذي يتمثل في

الأمويين... وأدركت كذلك تنكر أبناء العم من العباسيين بعد أن سلس لهم قياد الخلافة الإسلامية، وأصبحوا يديرون أمور الدولة بدلا من الأمويين الذين صاروا ضعافا، فلا حاجة إذا لبني العباس لأبناء العم من العلويين لمواجهة خصم بات ضعيفا، بل إن الخليفة العباسي مع الأيام قد تحول إلى خصم لأبناء العم من العلويين.

لقد سمعت هذه السيدة الفضلى فيما سمعت في صباها الباكر أن العلويين وقد أصبح أمرهم كذلك – لم ينسوا أيضا حقهم في الخلافة بعد مأساة كربلاء، بل كانت الخلافة شغلهم الشاغل، يطلبونها بكل وسيلة، ومن كل قائم عليها، أمويا كان أم عباسيا – لدرجة أنهم إذا وجدوا الفرصة سانحة لإعمال القوة وتجريد السيف اغتنموها، حتى لا يدعوها تمر، وإذا أنسوا في نفوسهم ضعفا استكانوا مكتفين بلقب الإمام، أو انتمائهم إلى بيت رسول الله ﷺ .. مفضلين الحياة الهادئة، والانصراف إلى الدين والعبادة والاعتكاف، عوضا عن الاشتغال بالحرب والسياسة.

وأدركت السيدة نفيسة رضى الله عنها والدها الإمام حسن الأنور... أدركته عن قرب، فأدركت مدى الحرج الذي كان يلاقيه، فقد كان من العلويين، غير أنه كان يرتبط بصلة المصاهرة مع العباسيين، حيث كانت أختها الكبرى أم كلثوم متزوجة من مؤسس الدولة العباسية «أبي العباس السفاح»، ولذلك .. اضطرته هذه المصاهرة أن يكون غير بقية العلويين. حيث كان هذا الأب العلوي أول من لبس العمامة السوداء شعار العباسيين، وأنه كان يتعاون معهم، حيث تولى إمارة المدينة وعمره وقتئذ سبعة وستون عاما من قبل الخليفة العباسى أبي جعفر المنصور، وبقي على ولايته ست سنوات، إلا أن كل ذلك لم يشفع له عند هذا الخليفة نفسه، وذلك عندما اقتضى الأمر أن يسجنه بفعل مكيدة ، ففعل بعد أن أقصاه عن الولاية، وصادر أملاكه، متناسيا تماما ما كان له من مكان حيث إنه صهر مؤسس دولتهم، وإنه من أبناء العم!!

كل ذلك لا يهم لدى العباسيين إذا كان الأمر متعلقا ببريق المنصب، ومكسب السلطة .. فلا يهم أن يلقى القريب والنسيب والحليف في غياهب السجون ، إذا كان ضد المصلحة الخاصة، فالعباسيون وقد استوت لهم مقاليد الأمور، ودانت لهم الدنيا ومن عليها، وحققوا من متاعها الشيء الكثير.. كانوا يتوجسون خيفة من العلويين، ويرصدون عليهم العيون.. يفعلون هذا مع كل علوي.. حتى ولو كان إنسانا فاضلا مسالما كالإمام حسن الأنور. ولعل ذلك له أسباب كثيرة، في مقدمتها بالطبع الإحساس بأنهم اغتصبوا حقا ليس لهم.. وأنهم إزاء هذا الإحساس لابد وأن يمحوا أصحاب هذا الحق من الوجود.. حتى يستقر الأمر لهم.

في هذا المناخ السياسي والاجتماعي المضطرب ، نشأت السيدة نفيسة وترعرعت، ولعل اضطراب الأحوال قد أثمر نتيجة محورية في بناء شخصية هذه السيدة الفضلى أصقل مداركها ومشاعرها في وقت مبكر، يضاف إلى ذلك أنها فتحت عينيها على مظاهر التقى والإيمان.. وفي الوقت نفسه سعة الرزق وبحبوحة العيش، والأكثر من هذا وذاك أن تجد نفسها ضمن عشرات ينتمون إلى مدرسة أبيها الإمام حسن الأنور .. مدرسة تضم العلماء والمؤرخين على غرار ابن إسحاق راوي السيرة النبوية .. في هذه المدرسة الأولى تلقت أمور دينها ودنياها، مما كان له كبير الأثر في تكوين شخصيتها فيما بعد.

وإلى جانب كل هذه العوامل الخارجية المكونات لشخصيتها، ما فطرت عليه من ذكاء حاد، وذاكرة قوية، وفهم سريع، واستيعاب لكل ما يحدث حولها من أمور وأحداث .. كانت تسمعها وتدخرها في حافظتها .. وقد عاونها في ذلك تعلمها المبكر للقراءة والكتابة، فقد تعلمت ذلك وهي في السابعة من عمرها، ولم يكن في زمانها ولا بيئتها من تحقق له ذلك في مثل هذا العمر، إذ كانت الأمية سائدة في نطاق البنين، فما بالنا بالبنات!

كان القرآن الكريم هو أول ما تهتم به وتحفظه بقلب مفعم بحب معانيه، وكانت الأحاديث النبوية الشريفة هي أهم ما تستوعبه بعد القرآن .. فأتت عليها تستوعبها وتدرسها بعاطفة خاصة، لعل مصدرها أن قائل هذه الأحاديث هو الجد الأعظم ﷺ وكانت علوم ومعارف زمانها غير بعيدة عنها، وإنما متاحة لها، فأقبلت عليها بعقلية متفتحة فذة .. وكانت في كل ذلك على إيمان مبكر بأن الفكر فريضة إسلامية، أقرتها آيات الكتاب الكريم، وأكدتها الأحاديث الشريفة .. وأن للعلم في كتاب الله وأحاديث رسوله مكانة جليلة.

وهكذا .. تمثلت السيدة نفيسة أول ما تمثلت طريقة أبيها في الانصراف إلى العبادة، والخلوص لله عز وجل، حتى قيل عنها إنه إذا كان بلال بن رباح رضي الله عنه قد شق أول طريق في التصوف، فإن السيدة نفيسة كانت من السابقات اللائي شققن طريقهن إلى التصوف بين النساء.

في هذه السن المبكرة كانت تقوم الليل وتصوم النهار، وتمعن في عبادتها ، وتزيد كلما نما جسمها وعقلها.. وكأنها تستشعر لذة بما تفعل. وها هي تقف أمام الكعبة، تتعلق عيناها بأستارها هامسة: «إلهي وسيدي ومولاي، منعني عجزي وضاعف فرحتي برضاك عني، فلا سبب له أتسبب به يحجبك عني». قد يدرك القارئ هنا مدى نضجها العقلي والوجداني الذي أصابته مبكرا في هذا الدعاء الحار الذي إن دل على شيء فإنما يدل على الإيمان في سلوكها مع الخالق.

وهكذا .. كان حال السيدة نفيسة في «مكة» أو «أم القرى»، حتى إذا انتقلت إلى المدينة المنورة بصحبة أسرتها تضاعف إيمانها، وهي لم تزل بعد في العشرين ربيعا، وعلى هذا يمكن القول - اتفاقا مع العلماء والمؤرخين - بأن هذه السيدة الفضلى قد سارت في طريق الله عبر مدرستين عظيمتين : الأولى في مكة ، والثانية بالمدينة المنورة.. لتأتيها العلوم والمعارف من كل صوب وحدب. وها هو ذا أبوها الإمام

حسن الأنور يصحبها مرات إلى قبر الجد الأعظم - كما تذكر الروايات - ويردد : «يا رسول الله، إني راض عن ابنتي نفيسة».. ثم يرجع ومازال يفعل هذا حتى رأى فيما يرى النائم رسول الله ﷺ يأتيه في منامه ويقول له: «يا حسن، أنا راض عن ابنتك برضاك عنها، والحق سبحانه وتعالى راض عنها برضاي عنها».

وفي المدينة .. يتصدر الإمام « مالك بن أنس » وقتئذ مجالس العلم، التى تجمع صفوة العلماء، ومن بينهم السيدة نفيسة، التي تتلقى مالا تعرفه طيلة أربعة عشر عاما قضتها في رحاب هذا العالم الجليل حتى توفي، فيتحقق لها الحسنيان معا: شرف العلم، ومن قبله شرف النسب: وتستمر في طريق العلم والمعرفة، وفية لهما، حتى يصبحا ركيزة تضاف إلى ركيزة عبادتها وصلاحها وتقواها.

ومع الأيام ، يزداد نضجها العقلي، ومعه تزداد محبتها للذات الإلهية، وتخلص في هذا الحب في خشوع وخضوع، وتبعد نفسها عما نهى الله ورسوله، وتطهر نفسها من كل شائبة مما يشين أفعال البشر، وتزهد في هذه الدنيا التي تبنى على الصراع والشر، وتقبل على العبادة في اعتدال وتعقل، جاعلة حياتها مرحلة تزود آخرتها بالعمل الطيب المثمر، فلا تقعد ولا تتواكل، بل تعمل لدينها ودنياها، فكانت بحق نعم المرأة العابدة العاملة الزاهدة . المرأة التى لا تنسى الأخذ بحقها المقسوم في حياة أحل الله سبحانه وتعالى طيباتها لعباده المخلصين.

حتى إنه حين يتقدم لخطبتها ابن عمها «إسحاق ابن الإمام جعفر الصادق» رضى الله عنهما... ترضى به خطيبا، وتحفظه زوجا، وتعيش معه محبة، وتصبح دارهما في المدينة المنورة - ثم في مصر بعد ذلك - ملتقى للعلماء، وكعبة لأعلام عصرها ممن عرفوا عنها أنها بحق «نفيسة العلم والمعرفة».

ومن المدينة المنورة ، انتقلت السيدة نفيسة وزوجها إلى مصر، ليلحق بهما والدها الإمام حسن الأنور رضي الله عنه بأربعة أشهر .. ولعلها اختارت هذا البلد الأمين

طلبا للهدوء والاستقرار، بعيدا عما يذكرهم من خلافات وصراعات، عاشوا فيها زمانا.. صراعات وخلافات كانت لا تزال ماثلة في الأذهان حتى وإن بعدت السنون وتغيرت الأحوال.

وتجد في مصر وشعبها ما لم تجده في غيرها من البلدان. لقد أحب هذا الشعب الكريم هذه السيدة الطاهرة.. أحبها قبل أن يراها.. حين سمع بعلمها وفضلها وتقاها وهي بمدينة الرسول ﷺ . حيث كان الحجاج المصريون ينقلون أخبارها، فلما اختارت مصر مستقرا، وشعبها أهلا، استقبلت بكل حفاوة وتكريم منهم، حتى إذا استقرت بينهم تحقق لهم ما كانوا يسمعونه عنها، فازدادوا تعلقا بها، ومن ناحيتها قابلت هذه المشاعر الصادقة بأفضل منها، برغم ما كان يساورها من قلق، خوفا من أن يسيء بنو العباس فهم ذلك، فيفسدون عليها رضا كانت تفتقده.

لقد رأى الشعب المصري في السيدة نفيسة – كما يذكر الأستاذ «محمد شاهين حمزة» – آماله الروحية تتحقق. فأقبل عليها إقبال الظمآن إلى الماء العذب. واشتد إقبالهم وتزاحمهم على بابها، حتى عاقها ذلك عما نذرت نفسها له من العبادة والعلم، وصبرت فترة، حتى إذا طالت راودتها فكرة العودة إلى حيث جاءت، فصحيح أنها أحبت هذا الشعب، ولكنها تحب الله أكثر، وتود أداء فرائضه وتقوم بعبادته خير قيام.

وحين ترامى إلى الشعب المصري نبأ عزمها على الرحيل، فزع إلى واليه من قبل الخليفة العباسي المأمون، ولم يتوان هذا الوالي عن التوجه إلى السيدة نفيسة طالبا منها البقاء بمصر، نزولا على رغبة أهلها، فقالت له: «إني جئت مصر بنية الإقامة الدائمة حتى الموت، وأن أدفن في تربتها.. إني امرأة ضعيفة، وأرى الناس قد تكاثروا على تكاثرا فاق طاقتي، وشغلني عن زادي لمعادي .. ومكاني هذا صغير قد ضاق بالجموع الوافدة . فقال لها الوالي: «إني سأزيل جميع ما تشكين منه لتبقي في مصر.. وسأهيئ لك الأمر على الوجه الذي ترضين به». وبالفعل يسر لها مكانا أفضل، ومن

جانبها خصصت يومين في الأسبوع تلتقى فيهما بالوافدين عليها، وطاب لها المقام بمصر.. ولم يكن موقفها من الشعب المصري الملتف حولها سلبيا، بل كان إيجابيا إلى حد بعيد.. حيث أعطته مما أفاض الله عليها من فضل، فنهل من مجالس العلم التي كانت تعقد في دارها، ومنحته صدق الدعوة إلى الله تعالى، وجمال التوجيه والإرشاد بخيري الدنيا والآخرة، وقدمت من نفسها أنموذجا متكاملا لما تكون عليه المرأة المسلمة المنتسبة إلى أشرف الخلق.. وهكذا ظل حبها باقيا في مصر يتوارثه الأبناء عن الآباء في حياتها أو بعد مماتها ، منذ وطئت أقدامها أرض مصر إلى اليوم.

ومع مسؤلياتها في الدعوة والفتوى أحيانا التى تجددت بمصر ، كانت تحافظ على تأدية شعائر الحج كل عام، حتى بلغ مرات حجها أكثر من ثلاثين مرة. في بعضها كانت تتعمد المشى على أقدامها.. كما كانت تحافظ على عبادتها بصورة منتظمة، حتى قالت عنها ابنة أخيها زيد: «قمت بخدمة عمتي أربعين عاما، فما رأيتها نائمة الليل ولا أفطرت النهار.. ولقد قلت لها ذات مرة: أما ترفقين بنفسك يا عمتاه؟ فقالت: «كيف أرفق بنفسي وأمامي عقبات لا يقطعها إلا الفائزون».

ولعلها في ذلك كانت تتمثل جدها العظيم الإمام علي كرم الله وجهه.. حيث كان يقول: «يا دنيا غري غيري.. إلي تعرضت، أم إلي تشوفت؟! لقد باينتك ثلاثا لا رجعة فيها، فعمرك قصير، وخطرك حقير. آه من قلة الزاد وبعد السفر ومشقة الطريق!!». مشيرا إلى الدنيا التي هي طريق إلى الآخرة وما فيها من الأهوال.

ولعل شخصية السيدة نفيسة تبدو من أحاديثها وأقوالها، تلك التى سجلها مؤرخوها، ونقلها الخلف عن السلف لتبقى على مر القرون خير شاهد وأصدق دليل على عظمة خلود هذه السيدة الطاهرة.. فهى حين تتضرع إلى الله عز وجل بالدعاء تقول: «اللهم يا من علا فقدر، وملك فقهر.. أجبر من أمتك ما انكسر» في هذا الدعاء نلمح رصانة عبارته، وهو ما ورثته من بيئتها العربية ونسبها الكريم.. كذلك نلمح نظرتها الثاقبة إلى أحوال الدنيا وما فيها من متاع الغرور، حيث تقول:

«الدنيا كلها مرارة، فإن كانت بها حلاوة فهى حلاوة الإيمان»، ونلمح أيضا جانبا من شخصيتها، حيث توجه المسلم إلى أنه ليست الصلاة - وهى صلة العبد بربه - بكثرة عدد الركعات، إنما الأفضل أن تتحقق هذه الصلة حتى وإن كانت ركعتين وتقول: «إن ركعتين في الصلاة فيهما الصلة المطلوبة في الصلاة بين العبد وربه خير من ألف ركعة تجردت منها».. ثم إنها وقد أتيح لها قسط وافر من العلم والمعرفة.. نراها تقول: «إن الإسلام غنى بتعاليمه عن الفلسفات الأخرى». هذا القول منها يدل على اطلاعها على هذه الفلسفات واكتشافها نواحى النقص والقصور فيها، وهو ما لا يتسنى إلا لعقل استوعب المعارف المتباينة، ثم قارن بينها.

ولعل إيمانها وصبرها وقوة عزيمتها يتجلى جميعه في إصرارها على مواصلة الصوم، حتى وإن كاد يقضى عليها.. وتقول لمن يطلب منها إفطارا رفقا بها: «واعجبا.. لي ثلاثون سنة أسأل الله عز وجل أن يتوفاني وأنا صائمة. وأفطر؟! معاذ الله».

وسيدة على هذا النحو من العلم والفضل، والتقى والصلاح.. لابد أن تكون قبلة لأعلام عصرها من العلماء، وفي مقدمتهم الإمام الشافعى الذي كان يزورها، وكانت تستقبله وتفيض عليه، وتناقشه في كثير من جوانب الفقه وأصول العبادة... ولم ينقطع عن زيارتها والاستزادة بفضلها إلا يوم أن اختاره الله إلى جواره. وكانت من المشيعين له.

وقصدها الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه حيث التقى بها حين كانت تعود مريضا من طلاب مجلسها العلمى، ويومها طلب منها صالح الدعوات، وكان يحرص على اللقاء بها كلما سنحت ظروفه في مصر أو في الحج.

ويروى أنها شهدت في آخر حياتها ظلم أحد حكام مصر آنئذ. وبلغها من ظلمه وجوره حيث جاء أهل مصر متوسلين أن تتشفع لهم عنده حتى يرفع عنهم مظالمه.. فسألتهم أوقات وأماكن خروجه فعرفوها.. فما كان منها إلا أن استوقفت موكبه

ونادته باسمه مجردا. فاستجاب لها مترجلا عن جواده ، واتجه إليها وهو يرتجف، فقالت له: «ملكتم فأسرتم، فكان منكم الجور والعسف، وقطع الأرزاق، وقد علمتم سهام الأسمار نافذة غير مخطئة ، لاسيما الصادر منها من قلوب أو جعتموها، وأكباد أذقتموها قسوة الجوع، ومحال أن يموت المظلوم ويبقى الظالم، فاعملوا ما شئتم، فنحن صابرون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون». وهنا ارتعد الحاكم الظالم، وأقبل على السيدة نفيسة يترضاها ويعدها بأن يصلح كل شيء.

ومرت الأعوام والسنون، وعندما أخذ الوهن يدب في أوصالها تخيرت لنفسها قبرها في المكان الذي كانت فيه دارها، وفي نفس الحجرة التي عاشت فيها بقية حياتها بمصر، وحفرت قبرها بنفسها ونزلت إليه، وصلت فيه مرات.. حتى إنه قيل بأنها قرأت القرآن الكريم بأكمله عدة مرات في هذا القبر الذي أحبته إلى درجة أنه كان يطيب لها المقام فيه أحيانا ساعات طوالا.

ولما أحست السيدة نفيسة رضى الله عنها بقرب نهايتها، راحت تستعد لذلك، وتقرأ سورة الأنعام، وراحت تستعيد آياتها في ضراعة وتبتل، حتى إذا ما وصلت إلى قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[1] فاضت روحها الطاهرة إلى بارئها.

* * *

(١) الأنعام: ١٢٧.

المأمـــون

وكان الخليفة العباسى المأمون من الأئمة الأجـلاء : مالـك والليـث بـن سـعد والشافعى وأبي حنيفة وابن حنبل والأوزاعى من المجددين على رأس المائـة الهجريـة الثانية . على اعتبار أن مجال تجديد هؤلاء الأئمة منصرف إلى العقيدة والدين ، ومجـال المأمون منصرف إلى إصلاح شئون الحكم ورعاية أحوال الناس . إن الأصل في حفظ الدين هو حفظ قانون السياسة وبـث العـدل والإنـصاف الـذي بـه تحقـن الـدماء ؛ ويتمكن من إقامة قوانين الشرع . ولهذا يقرر المؤرخون أن دعائم ملك المأمون قامت على محاولة إيجاد أمر جامع في كل من : الدين والعلم والحكـم . ففـى الـدين حـاول القضاء على هذه الفتنة التى قامت بين المسلمين بسبب انقسامهم إلى شيع وأحزاب ، فرق وطوائف . وفي العلم حاول أن يقضى على هذه الخلافات التى قسمت المسلمين إلى فئات تتعصب كل فئة منها لعلمها ؛ لأن كلا منها تجهل ما عند الفئة الأخرى مـن علم أو كما يقولون : « الناس أعداء ما جهلوا ». وفي الحكم حاول القضاء عـلى هـذه الاختلافات السياسية الناشئة من انقسامهم إلى عباسيين وعلويين .

والحق أن المأمون- كما يصفه جلال الدين السيوطى في كتابه (تاريخ الخلفاء) - كان أفضل رجال بنى العباس حزما وعزما وحلما وفضلا وعلما ورأيا ودهـاء وهيبـة وشجاعة وسؤددا . وإن له من المحاسن الكثير لولا ما أتاه من الناس في القول بخلق القرآن . فقد كانت هذه محنة استمرت زمنا .

وذكر السيوطى أنه لم يتول الخلافة من بنى العباس أعلم من المـأمون ، ولـذلك وصف بالخليفة العالم فقد كان فصيحا مفوها ، إلى درجة أنه كان يقـول عـن نفـسه : «معاوية بن أبي سفيان بعمره يقصد عمرو بن العاص، وعبد الملك بن مروان بحجاجه

يقصد الحجاج بن يوسف ، وأنا بنفسى» . وقيل عنه إن لبنى العباس فاتحة ووسطا وخاتمة، فالفاتحة : الخليفة السفاح والوسط : الخليفة المأمون والخاتمة أو النهاية: الخليفة المعتضد ، وخير الأمور الوسط، أي: أن المأمون هو خير بنى العباس . كذلك قيل عن علم المأمون وفضله أنه لم يحفظ القرآن أحد من الخلفاء إلا عثمان بن عفان رضي الله عنه والمأمون العباسي ، وأن المأمون كان يختم القرآن في كل رمضان .

ومن كلام المأمون الذي يدل على علمه وثقافته ونفاذ بصيرته أنه قال : «لا نزهة ألذ من النظر في عقول الرجال » ، وقال : « أعيب الحيلة في الأمر إذا أقبل أن يدبر ، وإذا أدبر أن يقبل » ، وقال : « أحسن المجالس ما نظر فيه إلى الناس » ، وقال : « الناس ثلاثة : فمنهم ثمل الغذاء لابد منه على أي حال ، ومنهم كالدواء يحتاج إليه في حال المرض . ومنهم كالداء مكروه – والعياذ بالله على كل حال » .

ولهذا .. لم يكن غريبا أن يهتم المأمون بالعلم والعلماء وأن يفضل في ذلك من سبقه من خلفاء بنى العباس . وأن يقبل على علوم الفلسفة خاصة ، وأن يتكلف في سبيل الحصول على كتبها الكثير من المال والجهد . كان يتحف ملوك الروم بالقسطنطينية بالهدايا الفنية لسابق معرفته بأن لديهم كتبا ثمينة في الفلسفة ورثوها عن الحضارة اليونانية القديمة ولم يعرفوا لها قيمة حتى إذا وصلتهم هدايا المأمون أرسلوها إليه . فاختار لها أشهر المترجمين حتى ينقلوها إلى العربية وينشروها بين الناس ، والأكثر يرغبون الناس في الإقبال على هذا العلم الذي أول ما يهتم به هو الاهتمام بتحريك العقل . وكما يقرر المؤرخون أن ما وصلت إليه الحضارة الإسلامية من كمال ، كان يرجع إلى ما صنعه المأمون حين اهتم بالعلوم الفلسفية ، وجعل المشتغلين فيها يعملون بجوار المشتغلين بالعلوم الدينية والأدبية ، وصارت لهم منزلة في الدولة لا تقل عن منزلة غيرهم من أصحاب العلوم .

ونتيجة لهذا كما يقرر السيوطي ويتبعه عدد من المؤرخين ، أن المأمون مضى في نزعته التجديدية غير متأثر فيها برأي غير رأيه ، فرأى أن خير وسيلة للجمع بين

الفرق المتخالفة أن يعقد لهم مجالس مناظرة، يدور فيها البحث فيما بينهم من خلاف، ويعرف كل منهم ما عند الآخر من أدلة حتى يزول الخلاف بالاقتناع . ولا شك أن هذه نزعة مقبولة وعظيمة من المأمون . ولكنها - كما يقرر الأستاذ «عبد المتعال الصعيدي» وغيره من المؤرخين وفي مقدمتهم السيوطي - لم تكن الوسيلة الناجحة لجمع كلمة المسلمين في ذلك الخلاف الذي نشأ بين تلك الفرق وهذه الطوائف ؛ لأن مجالس المناظرة التي استحدثها المأمون لا يكون النظر فيها لصاحب الحق دائما ، بل كثيرا ما يكون الظفر فيها لمن يكون أفصح كلاما وإن لم يكن الحق معه .

والتاريخ الإسلامي يحسب للمأمون من النوايا الصالحة الكثير .. ففي مسألة الحكم توجه بنية صالحة أراد بها أن يجمع كلمة المسلمين حتى يزول ما بينهم من خلاف سياسي نشأ منذ عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه . ففرق كلمتهم على الحكم حتى قيل إن المأمون قد تجاوز هذه النوايا الصالحة إلى ما هو أبعد مدى حيث عمل على تنفيذ هذه النوايا ، وذلك حين أراد أن يختار المسلمون رجلا من غير أهل بيته من العباسيين تجتمع كلمتهم عليه ليتولى الأمر من بعده . وقد كان المسلمون منقسمين حول من له حق الولاية عليهم . فأهل السنة يرون أنه يجب أن يكون قرشيا ، والشيعة يرون أنه يجب أن يكون علويا لأن هذا الحق ثابت لجميع المسلمين.

وهنا جمع المأمون خواص أوليائه وأخبرهم أنه نظر في ولد العباس وولد علي رضي الله عنهم . فلم يجد أحدا أفضل من علي بن موسى الرضا فبويع بولاية العهد وهذا الاختيار من المأمون يعيد إلى الأذهان مبدأ الشورى في الإسلام . حيث لم يجعل حكم المسلمين يستأثر به بنو العباس .

وعلى هذا الأساس من التفكير الإصلاحى ، كان يسلك المأمون ، حتى رأى الكثيرون من المؤرخين أن المأمون في مقدمة مجددي القرن الثاني للهجرة .

والآن.. هل نحن في حاجة إلى مزيد من حديث يدور حول هذا الخليفة وأفضاله ومناقبه وعلو شأنه وازدهار الدولة الإسلامية في عهده ؟.. لنرجع إلى ما كتبه عنه المؤرخون حتى نقترب من صورة هذا الخليفة التي هي أقرب ما تكون من الكمال .

ولعل من أجمل وأدق ما قرأته عن الخليفة المأمون ما كتبه المؤرخ الكبير «جمال الدين سرور» مع غيره من المؤرخين الثقات عن عصر هذا الخليفة المستنير، فنقرأ أنه كان لاتساع رقعة الدولة العباسية ، ووفرة ثروتها ، ورواج تجارتها ، أثر كبير في خلق نهضة ثقافية لم يشهدها الشرق من قبل ، حتى أصبح كثير من الناس طلابا للعلم وأنصارا للأدب كما طاف فريق كبير منهم البلاد سعيا إلى موارد العلم .

وقد تميزت عدة مدن في العصر العباسى بقوة الحركات العلمية والأدبية ، نخص بالذكر منها بغداد حاضرة الخلافة التي أصبحت أواخر القرن الثاني الهجري مركزا مهما من مراكز الثقافة الإسلامية .

ومن العوامل التى ساعدت على ذلك اهتمام الخلفاء وكبار رجال الدولة الإسلامية بنقل الكتب من الفارسية واليونانية إلى العربية ، فقد اتجهت ميول الخلفاء العباسيين بعد أن اختلط العرب بالفرس والروم إلى معرفة علوم الفرس واليونان ، فوجه أبو جعفر المنصور اهتمامه إلى ترجمة الكتب . ومن أشهر المترجمين في عهده ابن المقفع الذي نشأ بالبصرة وقضى نحو عشر سنوات من حياته في العصر العباسي ، أما بقية حياته فكان قد قضاها في العصر الأموي .

وكان لوقوع بعض مدن الدولة الرومانية الشرقية في حوزة الرشيد أثر كبير في نشاط حركة الترجمة في عهده ، فأمر بترجمة ما وصل إليه من كتب اليونان ، كما شجع البرامكة في أيامه المترجمين بإجزالهم العطايا عليهم .

كذلك تجلى في عهد الخليفة المأمون بن الرشيد ازدهار حركة النقل والترجمة من اللغات الأجنبية وخاصة من اليونانية والفارسية إلى العربية ، فأرسل البعوث إلى القسطنطينية لإحضار المصنفات الفريدة في الفلسفة والهندسة والموسيقى والطب .

وقد روى «ابن النديم» في كتابه (الفهرست) أن المأمون كان بينه وإمبراطور الروم مراسلات ، فكتب إليه يسأله الإذن في إنقاذ ما يختار من كتب العلوم القديمة التي يتوافر وجودها في بلاد الروم ، فأجابه إلى ذلك بعد امتناع . فعهد المأمون إلى الحجاج بن يوسف بن مطر ، وابن البطريق ، وغيرهما ، بإحضار بعض الكتب من القسطنطينية . وبعد أن عادوا إليه مزودين بالكتب التي وقع اختيارهم عليها ، أمرهم بنقلها إلى اللغة العربية .

ولما هادن الخليفة المأمون صاحب جزيرة قبرص ، بعث إليه يطلب بعض كتب اليونان ، فجمع ذوي الرأي عنده واستشارهم في إرسال هذه الكتب إلى الخليفة فأشار عليه أغلبهم بألا يرسل إليه أي كتاب .

ومن أشهر المترجمين في عهد المأمون : «حنين بن إسحق» الذي ولد سنة ١٩٤هـ من أب عربي من قبيلة عباد التي تسكن الحيرة . وكان يدين بالنصرانية على المذهب النسطوري . وقد رحل في بداية حياته إلى بلاد الروم حيث تعلم اليونانية ، ثم عاد إلى البصرة ولازم الخليل بن أحمد ، فأخذ عنه العربية ، وكان حنين بن إسحق يجيد أربع لغات هي الفارسية واليونانية والعربية والسريانية . وأهم ما امتاز به حنين الترجمة من اليونانية إلى العربية والسريانية .

اتصل حنين في بداية أمره بالخليفة المأمون ، فأسند إليه الإشراف على (بيت الحكمة) الذي قيل إن الرشيد هو الذي وضع أساسه ، وعمل المأمون من بعده على إمداده بمختلف الكتب والمصنفات التي تحوي كل العلوم التي اشتغل بها العرب. ويعد هذا البيت أهم مجمع أسس لنشر الثقافة بين جمهور المسلمين ، وكانت الترجمة من بين أعماله الرئيسية .

لم تكن العناية بالترجمة مقصورة على الخلفاء العباسيين ، بل اهتم جماعة من الأثرياء في عهد المأمون بنقل كثير من الكتب إلى العربية ، ومن هؤلاء : بنو شاكر

المنجم الذين عهدوا إلى حنين بن إسحق بالذهاب إلى بلاد الروم ، فأحضر إليهم كثيرا من طرائف الكتب والمصنفات في الفلسفة والهندسة والموسيقى والطب .

وقد ترجم في عهد المأمون كثير من الكتب اليونانية ، نذكر منها : (الحكم الذهبية) لفيثاغورس ، وبعض المصنفات لأبقراط وجالينوس ، وكتاب (السياسة المدنية) لأفلاطون ، وكتاب (المقولات والطبيعيات) لأرسطو .

وكان المأمون يحض الناس على قراءة الكتب التي ترجمت في أيامه ويرغبهم في تعلمها ، ومن ثم تقدمت الحركة العلمية في عهده ، وتنافس أولو النباهة من العلماء والفقهاء والمحدثين والأدباء والشعراء في تحسين إنتاجهم فأجزل لهم العطاء .

وينتقل الدكتور «سرور» إلى موضوع آخر هو : كان هناك نوعان من الدراسة اشتغل بهما المسلمون :

أولهما : دراسة دينية حول القرآن والحديث .

وثانيهما : دراسة دنيوية حول الطب والفلسفة والكيمياء والمنطق والرياضيات والتاريخ والجغرافيا .

وقد عبر «ابن خلدون» في (مقدمته) عن هذين النوعين تعبيرا صادقا، فقال: إن العلوم صنفان ، صنف طبعي للإنسان يهتدي إليه بفكره ، وصنف نقلي يأخذه عمن وضعه . والأول يشمل العلوم الحكمية الفلسفية ، وهي التي يمكن أن يقف عليها الإنسان بطبيعة فكره ، ويهتدي بمداركها البشرية إلى موضوعاتها ومسائلها . والثاني يشمل العلوم النقلية وهي مستندة إلى الخبر عن الواضع الشرعي . وزاد ابن خلدون على ذلك فقال : إن العلوم العقلية أو الطبيعية مشتركة بين الأمم ؛ لأن الإنسان يهتدي إليها بطبيعة فكره ، وأما العلوم النقلية كلها فمختصة بالملة الإسلامية وأهلها .

كانت العلوم الدينية من تفسير للقرآن الكريم وجمع للحديث واستنباط الأحكام الشرعية منهما موضع اهتمام كثير من المسلمين في العصر الأموي . أما الجدل الديني والبحث الفلسفي فلم يقم بهما إلا القليلون في ذلك العصر . فلما جاء العصر العباسي واصل المسلمون الاشتغال بالتفسير والحديث والفقه، كما وجهوا اهتمامهم إلى العلوم الدنيوية، فترجمت عدة كتب في الكيمياء والرياضيات والطب والمنطق والفلسفة . واشتغل كثير من المسلمين بدراسة الكتب التي ترجمت إلى العربية وعكفوا على تفسيرها والتعليق عليها وإصلاح أغلاطها .

نخص بالذكر من هؤلاء : «يعقوب بن إسحق الكندي» الذي كانت له منزلة كبيرة عند المأمون والمعتصم ، وكان عالما بالطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق والهندسة وعلم النجوم ، وهذا في تأليفه حذا حذو أرسطو ، وترجم كثيرا من كتب الفلسفة وشرح غوامضها .

ويذكر الدكتور «سرور» دور المأمون منذ أن استقرت خلافته ببغداد بعقد مجالس للمناظرة بين كبار العلماء والمتكلمين الذين تناولوا أصول الدين والعقائد وحكموا عقولهم في البحث . ولا غرو فقد عرف المأمون منذ نعومة أظفاره بالجد والحرص على طلب العلم والتفقه فيه . وهو رجل متنوع العمل ، عالم مع العلماء، فيلسوف مع الفلاسفة ، وكان يرمى من مجالس المناظرات التى يدعو إليها العلماء والفقهاء ، إلى إزالة الخلاف بين المتناظرين في المسائل الدينية وتثبيت عقائد من زاغوا عن الدين، وبذلك تتفق كلمة الأمة في المسائل الدينية التي كانت مصدر ضعفهم .

قال يحيى بن أكثم : أمرني المأمون عند دخوله بغداد أن جمع له وجوه الفقهاء والعلماء من أهل بغداد ، فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلا ، فجلس لهم المأمون وسألهم عن مسائل وأفاض في فنون الحديث والعلم ، ولما انقضى هذا المجلس قال المأمون : يا أبا محمد، كرر هذا المجلس الذي جعلناه للنظر طوائف.. وإني لأرجو أن يكون مجلسنا هذا - بتوفيق الله وتأييده على إتمامه - سببا لاتباع هذه الطوائف ما هو

أرضى وأصلح للدين ، إما شاك فيتبين ويتثبت ، فينقاد طوعا ، وإما معاند فيرد بالعدل كرها .

وكان للمأمون من الذوق العلمى والفلسفة ورحابة الصدر في الجدل والمناظرة والإصغاء إلى مختلف الآراء ما حفز العلماء على التعمق في البحث ليظهروا في مجالس المناظرات بمظهر يدل على كفايتهم العلمية وسعة اطلاعهم . وكان ما يدور في مجالس المأمون من الجدل والمناظرة يتناقل على ألسنة الناس ، فيتجادلون فيه هم كذلك .

عرف المأمون بميله إلى الحرية في التفكير مع التقيد بأصول الدين ، ومن ثم أصبح الاعتزال أقرب المذاهب إلى نفسه لأنه أكثر حرية وأكثر اعتمادا على العقل ، فقرب المعتزلة منه وصاروا ذوي نفوذ في قصره .

وكان الاعتزال قد نشأ في البصرة في أواخر عهد الدولة الأموية ، ثم انتشر منها إلى سائر بلاد العراق ، لكن أصوله لم تنظم إلا في صدر العصر العباسى ، حيث أخذ الخلفاء يناصرون الحركة العلمية ، وينهضون بالأساس الذي وضعه العلماء في الدولة الأموية . كما أن دعوة المعتزلة لم تظهر ظهورا بينا إلا في هذا العصر ، فبعثوا الدعاة إلى الأمصار لنشر مبادئهم ، واعتنق مذهبهم كثير من الناس على اختلاف طبقاتهم ، وعلا شأنهم علوا كبيرا في عهد المأمون والمعتصم والواثق .

إلى آخر ما ذكره الدكتور «جمال الدين سرور» وغيره من المؤرخين قديما وحديثا عن عصر المأمون ، مما يؤكد أن هذا الخليفة من حكام المسلمين الذين توسلوا بالتجديد في الفكر الإسلامى كحل لكل شئون الدولة الإسلامية وعلاقاتها مع بقية الأمم في ذلك العصر بعد هذا التوسع الذي تم على أيدي أبنائها الحكام والمحكومين على حد سواء .

* * *

معروف الكرخي

ولد لأبوين مسيحيين في كرخ بغداد بالعراق، ورضع لبان أمه المسيحية رضيعا، وتربى على يدي والد مسيحي طفلا ، وتعلم على يد معلم مسيحي صبيا ، وشب ليتحول من المسيحية إلى الإسلام شابا ، وشملت محبة الإسلام بقيمه وتعاليمه كل أقطار نفسه ، وأتقن وأجاد كل ما يتصل بهذا الدين وكأنه بذلك يتعلم ليعلم ، وأصبح من مجددي القرن الثاني للهجرة ، وظل على هذا النحو حتى توفي عام 200 هـ .. (ذلك هو : معروف بن فيروز (أو فيروزان الكرخي) نسبة إلى كرخ بغداد التي ولد ونشأ فيها .

كان معلمه المسيحي يطلب منه أن يردد وراءه هذه العبارة قائلا : « قل ورائي – ثالث ثلاثة » فكان يخالفه قائلا : « بل هو الواحد ، هو الواحد ، هو الواحد » ، فيضربه على عناده ضربا مبرحا ظنا منه أنه يتمرد عليه ويعارضه ، دون أن يعلم أنه لا يعاند ولا يعارض ولا يتمرد ، إنما يعبر عما في قلبه ، ولا يستطيع لسانه أن ينطق بغير ما يشعر به فؤاده .. ويستمر الأمر على هذا الحال حتى ضاق بأسلوب معلمه في التربية والتعليم ، فقرر الهروب منه ومن ضربه ليس إلى البيت الذي يصر على تعليمه على يد هذا المعلم المسيحي بالذات ، وإنما إلى هذه الدنيا الواسعة حيث لا يرجع إلى البيت ولا إلى المعلم ، ويطول غيابه ، الأمر الذي تقلق عليه أسرته وتتألم، وتتمنى أن يعود إليها بأي وسيلة ، ويرددون : ليته يرجع إلينا على أي دين يشاء فنوافقه عليه.. المهم أن يرجع » .

في هذه الغيبة الطويلة لجأ هذا الشاب المبشر بعلم وفضل إلى واحد من الصالحين يدعى : «علي بن موسى الرضا» فأسلم على يديه ، وأعطاه اسمه «علي» الذي كان يكنى به أحيانا .. وتعلم أن دخوله في الإسلام لم يحل أو يمنع التفكير في والديه. حيث رجع إليهما حين بلغه قولهما . وعندما عاد سألاه : على أي دين ؟ فقال: على دين الإسلام . فأسلم أبواه حين أخبرهما بإسلامه وما ينطوي عليه هذا الدين من المبادئ والقيم .

وصاحب معروف الكرخي الإمام علي بن موسى الرضا ، فأخذ عنه الزهد ، إلا أنه بالغ في ذلك ، ولم يلتزم بحد الاعتدال ، ولعله في ذلك قد تأثر بمتصوف زاهد كبير هو «ابن السماك» وغيره من الزاهدين . وفي علاقته بابن السماك حكاية تروى بأنه : حين كان مارا بالكوفة وقف عند رجل يعظ الناس يقال له ابن السماك ، الذي قال أثناء وعظه عبارة استوقفت معروف الكرخي هي: « من أعرض عن الله بكليته، أعرض عنه جملة ، ومن أقبل على الله تعالى بقلبه ، أقبل الله برحمته عليه ، وأقبل بوجوه الخلق إليه » فوقعت كلمات هذه العبارة في قلب معروف الكرخي وأقبل على الله تعالى ، إقبالا غير عادي متأثرا بأسلوب هؤلاء الزهاد ، الذين كانت طريقتهم مداومة العبادة والطاعة لله ، ولزوم الفقر ومحبة الفقراء ، ولزمهم لزوما منقطع النظير ، حتى بلغ من أمره في ذلك أنه قيل له في مرض موته ، اوص فقال : « إذا مت فتصدقوا بقميصي ، لأني أريد أن أخرج من الدنيا عريانا كما دخلتها عريانا» .

ولعل هذا السلوك من مجددنا معروف الكرخي يصفه بعض العلماء ومنهم الأستاذ «عبد المتعال الصعيدي» بأنه كان سلبيا حيث رأى : « أن مبالغة أولئك الزهاد في أمرهم إلى حد تقديس الفقر كان له أسوأ الأثر على المسلمين ، فكأنهم بذلك أرادوا أن يصلحوا إفساد الناس في الغلو في أمر الدنيا ، بالغلو في أمر الآخرة ، فعالجوا غلوا بغلو ، مع أن الإسلام ليس بدين الغلو في أمر الدنيا أو الآخرة ، وإنما

هو دين الاعتدال في أمرهما ، فلا يمدح فيه من يفرط في أمر دنياه ، كما لا يمدح فيه أيضا من يفرط أمر أخراه » .

وللأستاذ الصعيدي كل الحق في ذلك . إلا أن هذا السلوك السلبي ظهر بين المسلمين في هذا القرن (الثاني) حين كانت الدنيا مقبلة عليهم ، وكانت آثار القوة التي أودعها الإسلام في نفوس أتباعه ، لا تزال لها سلطان عليهم ، فلم يسمعوا كثيرا لدعوة التفريط في الدنيا من أولئك الزهاد لأنهم عدوهم فقراء وغيرهم أغنياء ، صحيح أن هذا الزهد مباح في الإسلام إلا أنه ليس هو المثل الأعلى فيه كما يرى هؤلاء الزهاد ، وأن إباحته مشروطة بعدم الغلو في أمره إلى حد تقديس الفقر ، فالمبالغة فيه مذمومة من العلويين وغيرهم ، والاعتدال في أمر الدنيا هو المطلوب في الإسلام .

ولعل أقوال معروف الكرخي كانت من الأسباب التي جعلت الناس يقبلون عليه ويلتفون حوله ، بل جعلت كبار العلماء - قديما وحديثا - يعتبرونه واحدا من مجددي القرن الثاني الهجري ، ومن هذه الأقوال : « إذا أراد الله بعبد خيرا فتح عليه باب العمل ، وأغلق عنه باب الجدل ، وإذا أراد الله بعبد شرا أغلق عليه باب العمل وفتح عليه باب الجدل » . وهذا القول إيجابي وصواب جملة وتفصيلا ؛ لأن الخير كل الخير في العمل وليس في الجدل والكلام، والإسلام يعتبر العمل نوعا من العبادة، وتغليبه على الجدل أو الكلام هو خير للمسلم ، ومنها قولهم : « إذا عمل العالم بالعلم استوت له قلوب المؤمنين ، وكرهه كل من في قلبه مرض» . هذا القول يدلنا على أن أولئك المتصوفة ومنهم معروف الكرخي في هذا القرن كانوا مع مبالغتهم في العبادة والزهد ، لا يرون أنهم في غنى عن العلم - ولا يرون أن مجرد العبادة والزهد يكفي لنيل رضا الله عز وجل ، بل لابد معهما من العلم ، ليقوم العمل به على أساس سليم ، وينال بالعلم والعمل رضا الله كاملا غير منقوص . ولعل هذا الوعي والإدراك بقيمة العلم والعمل هما اللذان جعلا للأمة العربية الإسلامية مركز

الصدارة ، خاصة في القرون الهجرية الأولى ، يستوي في هذا الوعي والإدراك أتباع الصوفية أو غيرهم من المسلمين .

ولعل هذه الأقوال المقرونة بالأعمال كانت من مبررات اختيار معروف الكرخي واحدا من مجددي القرن الثاني الهجري . يضاف إلى ذلك أن تصوفه كان تصوف زهد وورع ، لا تصوف فلسفة ونظر ، وقد استعملت كلمة الصوفي أول ما استعملت في الكتابات الأدبية اسما لطائفة معينة من الزهاد الذين سماهم الجاحظ – الصوفية من النساك – وقد عمت حركة الزهد وانتشرت في كل مكان عندما ظهر في هذا القرن الميل إلى مجانبة الدنيا ، كرد فعل لما كان سائدا ومتفشيا في المجتمع الإسلامي في هذه الفترة بالذات من أنواع الترف والبذخ ، وهو ما عبرت عنه الأدبيات ، وفي مقدمتها حكايات ألف ليلة وليلة وغيرها . ولهذا .. فإن آلافا من المسلمين اعتزلوا الناس إلى حياة دينية هادئة إما فرادى ، وإما مع نفر قليل من أصحابهم ، وقد فر بعضهم – كما يقول الأستاذ الصعيدي وغيره من العلماء – إلى الخانقاوات التي ابتدأت تظهر قبل نهاية هذا القرن ، وإن لم تأخذ هذا الاسم ، عندما رسخ في نفوسهم اليقين من عذاب الآخرة وأهوال يوم القيامة . فبالغوا في الشعور بالمعصية ، ورجعوا عن كل مخالفة للشرع مهما صغرت بمختلف أساليب التوبة والندم ، واصطنعوا أساليب الذكر والتوكل ، وقد كان الذكر في أول الأمر نوعا من التأمل ، مصحوبا بترديد كلمة « الله » . أما التوكل فقد أخذ به بعضهم إلى حد التجرد عن كل عمل لهم فيه إرادة ، وامتنعوا حتى عن السعي في طلب الرزق .

هنا سلك معروف الكرخي مسلكا جديدا في التصوف وعرفه بأنه : « الأخذ بالحقائق ، واليأس مما في أيدي الخلائق » ، ثم يقول : « إن محبة الله شيء لا يكتسب بالتعليم ، وإنما هي هبة من الله وفضل » . ثم يعرف الأولياء في أمور ثلاثة : « أن يكون فكرهم في الله ، وأن يقوموا بالله ، وأن يكون عملهم لله » . وإذا لم يكن

للعارف من غير نفسه أي نوع من أنواع السعادة ، فإنه في نفسه متقلب في جميع أنواع السعادة . وإن من يتتبع أقواله - أي معروف الكرخي - وأقوال غيره يدرك أن أقواله من طراز آخر يخالف طراز أقوالهم كل المخالفة ؛ لأن تصوفهم يتجه نحو غاية «النجاة بالنفس من عذاب الآخرة » ، أما تصوفه هو - أي معروف الكرخي - فقد كان في جوهره وسيلة للمعرفة ، بمعنى : قصد الوصول إلى الذات العلية ، فوضع بهذا أساسا للتصوف النظري لمن بعده .

ولعل هذا وغيره كانت من مبررات اعتبار معروف الكرخي من مجددي القرن الثاني الهجري ، ويكفي هذا المجدد فضلا أنه استشعر معنى الإسلام وهو في ميعة الصبا حين كان يخالف معلمه الذي يقول له «ثالث ثلاثة» فيرد عليه : « بل هو الواحد » ويهرب من معلمه ومن والديه محبة في الدين الذي اختاره ، وحين يعود يقنع والديه بالدخول في هذا الدين ، فيوافقانه .. يكفيه هذا ومعه ما استحدث في أساليب التصوف من جوانب جديدة تدعو إلى المعرفة والعمل والعلم .

* * *

الإمام الشافعي

الإمام الشافعى يعتبر من مجددي القرن الثاني الهجري ، كما اصطلح على ذلك العلماء والمؤرخون. صحيح أنه عاش السنوات الأربع الأولى من القرن الثالث إلا أن أغلب سنوات عمره كانت في القرن الثاني للهجرة، ولذلك فقد اصطلح أغلب الذين كتبوا عنه على وضعه ضمن مجددي القرن الثاني للهجرة.

والإمام الشافعى هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع، وينتهى نسبه إلى عبد مناف، فيلتقى نسبه مع النبى ﷺ عند الجد عبد مناف.. هذا الإمام والمجدد الإسلامى ولد بغزة عام ١٥٠ هجرية، وهى السنة التى توفي فيها الإمام أبو حنيفة... بدأ في طلب العلم بمكة والمدينة فبلغ فيه شأنا سمح له بالفتيا. والتدريس باليمن، فدس له «واليها» عند الخليفة هارون الرشيد حتى يخلص من رقابته، لكن يبرئه في بغداد قاضى الرشيد قائلا عنه: «له من العلم حظ كبير وليس الذي وجه إليه من شأنه»... ويعود إلى العلم والتحصيل، فما خلق إلا لهما، ويكتب رسالة أخذ الفقه منها علما له أصوله، ويؤسس مذهبا دينيا له أتباع ومريدون كواحد من المذاهب الإسلامية الأربعة : (المالكي والحنفي والحنبلي والشافعي).

كان الناس قبل الشافعى، إما : أصحاب حديث يحفظونه ويعجزون عن النظر والجدل، وإما : أصحاب رأي يجيدون النظر والجدل ويعجزون عن الآثار والسنن. فجمع بين الأمرين معا... نصر الحديث بالرأي، فانقطع بسببه استيلاء أهل الرأي على أهل الحديث. وقد بلغ من انتصاره أنه كان يقول: «ما من أحد إلا وتذهب عنه سنة لرسول الله ﷺ وتغرب فمهما قلت من قول أو أصلت من أصل فيه عن رسول الله ﷺ خلاف ما قلت، فالقول ما قال رسول الله ﷺ».

لكن الإمام الشافعي لم يجد مجالا لعمله الجديد في بغداد ؛ لأنه كان يغلب على بغداد طريقة أهل الرأي، ولاسيما في عصر المأمون، الذي ظهر فيه الفلاسفة والمعتزلة، وهم أكثر غلوا في الاعتماد على الرأي من أبي حنيفة وأصحابه.. فتوجه إلى مصر عام ١٩٩ هـ، وفيها وجد مجالا متسعا، والمناخ يسمح بالتجديد في العلم، فقد سبقه إلى هذا المجال فقيه مصر الليث بن سعد منذ سنوات قليلة.

وقد جارى الإمام الشافعي غيره من أهل الحديث في الاعتماد على ظواهر النصوص في الأصول والفروع، فكان يذم التأويل فيها، كما يذم الاعتماد على الرأي وحده الصادر من العقل، كما جرى عليه علماء الكلام في عصره من المعتزلة، فلم تتجه نفسه إلى ذلك التفرق الديني الذي أشاع بين المسلمين الكثير من التباعد، ولم يعمل لنشر التسامح بين الفرق الدينية بقدر المخالفة في الرأي بل كان في الجانب المتزمت الذي لا يقبل تأويل النصوص ولا يرى أن يستفيد المسلمون في الدفاع عن دينهم بالمنطق أو نحوه من الوسائل التي توجد عند غيرهم.

وقد امتاز الإمام الشافعي بين الأئمة الأربعة بأنه ضبط بنفسه الأصول التي جرى عليها في اجتهاده واعتمدها في استنباطه ودونت في كتابيه : (الرسالة) و(الأم) وفيهما تلمح الكثير من آرائه التجديدية. يقول في كتابه (الأم): «العلم طبقات شتى، الأولى: الكتاب والسنة إذا أثبتت والثانية: الإجماع فيما ليس فيه كتاب ولا سنة. والثالثة: أن يقول بعض أصحاب النبي ﷺ قولا ولا نعلم مخالفا منهم.. والرابعة: اختلاف أصحاب النبي ﷺ في ذلك. والخامسة القياس والاستحسان، ولا يسعيان إلى شيء غير الكتاب والسنة، وهما موجودان ، وإنما يؤخذ العلم من أعلى».

وامتاز أيضا الإمام الشافعي بشاعريته التي كان لها كبير الأثر في حل قضية الشعر والدين حلا علميا، والتي محورها نفس شاعرية الرسول عليه الصلاة والسلام في القرآن. وقد فصل الإمام الشافعي في هذه القضية بقوله: «الشعر كلامه

حسن كحسن الكلام، وقبيحه كقبيح الكلام.. غير أنه كلام باق سائر فذلك فضله على الكلام» . ولا يطمح أي شاعر أن يسمع كلام إمام كالشافعي أكثر من هذا القول الواضح الفاصل.

ومن مظاهر تجديد الإمام الشافعي في التمسك بالحق أنه كان يقول رأيين أو أكثر في المسألة الواحدة دون أن يرجح رأيا منها لعدم ظهور المرجح عنده ، وكان يقول بالرأي ، ثم يتبين له أن الحق في غيره فيتحول عن رأيه الأول، وقد برر ذلك فيما اشتهر من مذهبه القديم والجديد. ففي العراق استنبط الشافعي أحكاما وأصدر فتاوى وفق المنحى الذي اختاره للاجتهاد فكان من مجموع أحكامه وفتاواه ما عرف بفقه الشافعي «القديم» الذي تضمنته كتبه المؤلفة بالعراق، ومن بينها كتاب (الرسالة) وكتاب (المبسوط).

ولكن الشافعي بعد أن استقر بمصر رجع إلى كتبه وأقواله القديمة بالدرس والتمحيص. كما يرى الأستاذ «عبد الله سعد الرويشد» في كتابه : (قادة الفكر الإسلامي). فأقر بعضها وتحول عن بعضها الآخر نتيجة لمخالطته علماء مصر، وسماعه ما صح عندهم من الأحاديث، وما نقلوه من آراء الليث بن سعد ولما شاهده من حالات اجتماعية غير التي عرفها في الحجاز والعراق. ولذلك عرفت أقواله التي أملاها على تلاميذه في مصر بفقه الشافعي «الجديد»، وتضمنه كتاب «الأم» الذي هو تنقيح لكتابه «المبسوط».

ومن أمثلة ما تحول عنه الشافعي من الأقوال أمرين: أولهما: أنه في فقهه القديم اعتبر العلة في تحريم ربا الفضل في غير النقدين - أي في المشروبات والمأكولات - كونها ما يكال ويوزن ثم اعتبر في قوله الجديد أن العلة هي كونها مما يطعم.. وثانيهما أنه قال في فقهه القديم: يجب على المطلقة قبل الدخول متعة إن أخذت نصف

الصداق، وقال في الفقه الجديد لكل مطلقة متعة لعموم قوله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1].

وهذا التطور الذي انتاب الإمام الشافعي في فتاواه أمر طبيعي نتيجة تطوره في الأخذ عن السابقين والتفكير فيه، ثم مواكبة اللاحقين، فقد أخذ في المدينة المنورة عن الإمام مالك وتخرج عليه، كما أخذ - بعد ذلك - عن أصحاب الإمام أبي حنيفة علم أهل الرأي وتفقه فيه. وبتمكنه من المذهبين لاحظ ما فيهما من كمال وقصور فعمل على إيجاد مذهب وسط بينهما يتفق مع ما حصل من معارف جديدة بعد استقراره بمصر وتعرفه على آراء علمائها وفقهائها.

وللإمام الشافعي الحق في ذلك.. له الحق أن يطور فيما أخذ عن الإمام مالك والإمام أبي حنيفة اللذين قال عنهما الجويني إمام الحرمين: «فمالك أفرط في مراعاة المصالح المطلقة المرسلة، وأبو حنيفة قصر نظره على الجزئيات والفروع والتفاصيل..».

وإذا كنا في صدد الحديث عن فتاوى الإمام الشافعي. فقد يكون من المفيد أن نتعرض لاجتهاده. كما جاء في بعض كتابات المؤرخين، وفي مقدمتهم الأستاذ «عبد الله بن سعد الرويشد»، وخلاصة اجتهاد الشافعي أنه وقد اجتمع له علم الرأي من العراقيين وعلم أهل الحديث من الحجازيين، تعرف في ذلك بما أوتي من علم ومواهب وخرج من المناقشة في المسائل إلى تأصيل الأصول، وتقعيد القواعد، ووضع لأول مرة رسالته في علم الأصول، حيث شرح طريقته وأقام قواعده، وسمي بحق مؤسس علم الأصول، وقد كان لرسالة الشافعي في الأصول أثر عظيم في تاريخ الحقوق والاجتهاد إذ إنها حملت العلماء بعد ذلك على أن ينصرفوا للاهتمام بتدوين قواعد طرائقهم والنقاش فيها إلى جانب اهتمامهم بإيجاد حلول للمسائل

(١) البقرة: ٢٤١.

والمناقشة فيها، وأقاموا بذلك علما عظيما مستقلا عن العلم بالمسائل، وكونوا فيه مكتبة عربية ضخمة كانت ولا تزال فخرا للأجيال وشرفا ممتازا لعلم الحقوق الإسلامية.

غير أن الإمام الشافعي - أثناء تدوين طريقته، وتكلمه عن أصول الشريعة ومصادرها قد ضيق نطاق الاجتهاد كأصل من أصول الشريعة وجعله مقصورا على القياس ، وأخرج منه الاستحسان ونحوه وقال فيه: «من استحسن فقد شرع ولم يقيد من أصول الشريعة ومصادرها إلا نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية ، فإن لم يكن نص فيهما فبالحمل على النص بطريقة القياس»، ولا شيء غير النص عند الشافعي في كل مسألة يفتي فيها ولقد أثبت الشافعي انحصار الأصل الإسلامي في الكتاب والسنة. وفي هذا يقول الشافعي: «الكتاب والسنة هما الأصلان اللذان افترضهما الله وهما «عينان». ثم قال: «إذا اجتهد المجتهد فالاجتهاد ليس بعين قائمة، إنما هو شيء يحدثه من قبل نفسه، ولم يؤمر باتباع نفسه، إنما أمر باتباع غيره. فإحداثه على الأصلين اللذين افترض الله عليه أولى به من إحداثه على غير أصل أمر باتباعه، وهو رأي نفسه، ولم يؤمر باتباعه. فإذا .. كان الأصل أن لا يجوز أن يتبع نفسه، وعليه أن يتبع غيره والاجتهاد شيء يحدثه من عند نفسه».

ثم قال الإمام الشافعي: «الاستحسان يدخل على قائله، كما يدخل على من اجتهد على غير كتاب ولا سنة، ومن قال هذين القولين قال قولا عظيما، لأنه وضع نفسه، في رأيه واجتهاده واستحسانه، على غير كتاب ولا سنة موضعهما... وهذا خلاف كتاب الله عز وجل، لأن الله تبارك وتعالى إنما أمر بطاعته وطاعة رسوله..».

ويتضح لنا من هذا : أن طريقة الإمام الشافعي في الاجتهاد هي نفس الطريقة التقليدية التي كانت منتشرة في أوروبا حتى مطلع القرن العشرين، والتي لا تزال مسيطرة حتى الآن فيها. وهي لا ترمي إلى الاعتراف بالاجتهاد كمصدر من مصادر

الحقوق، ولا تقبل منه إلا ما كان محمولا على نصوص القانون معتبرا صادرا عنه، وتعتبر الاجتهاد واسطة للكشف عن إرادة المشرع القديم في الحادثة الجديدة ، لا للكشف عن إرادة غيره، وذلك بواسطة القياس المنطقي.

وخلاصة القول: أنه إذا أردنا أن نحدد الطابع الذي طبع به المذهب الشافعي فنقول أنه يتحدد في هذه النقاط:

١- حصر المصادر الحقيقية للشريعة في نصوص الكتاب والسنة.

٢- الأخذ بالاجتهاد ضمن نطاق القياس فقط، وإخراج ما عدا ذلك من طرق الاجتهاد كالاستحسان.

٣- اعتبار الاجتهاد بهذا المعنى حملا على النص، ولا شيء فيه غير النص : كتابا كان أو سنة.

وإننا لنجد في الطابع الخاص للمذهب الشافعي - أي تضييق نطاق الاجتهاد وحصره في نطاق القياس فقط: فارقا أساسيا ما بين طرائق الاجتهاد لدى المذهب الشافعي من جهة، ولدى المذهبين: الحنفي والمالكي من جهة أخرى، حيث اعتبر هذان المذهبان - كما تقدم - الاجتهاد مصدرا من مصادر الشريعة، وذلك بأوسع معاني الاجتهاد من قياس واستحسان واستصلاح. مع تقدير تطورات الأزمان، والأعراف، وما يكون لها من تأثير في الأحكام.

ومن هذا .. ذهب الأستاذ « عبد المتعال الصعيدي » إلى القول بأن الشافعي لم يكن مجددا فيما يتعلق بالرجعية التى وقعت فيها الفرق الإسلامية ؛ لأنه كان يرى مثل أهل السنة أن الإمامة في قريش، وأنها قد تكون من غير بيعة إن كان ثمة ضرورة إلا أن هناك عددا من الكتاب المحدثين، ومنهم الدكتور «عبد الحميد صالح حمدان » يعتبره مجددا على رأس المائة الثانية للهجرة.

بل قد يروى عنه - أي الشافعي - أنه قال: «كل قرشي غلب على الخلافة بالسيف، واجتمع عليه الناس فهو خليفة». فهذا منه إقرار لتلك الرجعية، وقد جعل الإسلام الأمة صاحبة الحق في تولية من يولى عليها، فمن يأخذه بالسيف يكون غاصبا، لأنه يكون في الغالب ناشئا عن عجزهم، ولأن المعصية لا يسوغها اجتماع الناس عليها، وإنما يسوغها التوبة منها. ولعل الشافعي يقصد من ذلك تحريم الخروج عليه إذا كان فيه ضرر أكثر من بقائه.

كذلك كان للإمام الشافعي رأي فيما يتعلق بالرجعية الاجتماعية التي قامت على التفرقة بين الشعوب الإسلامية.. ورفع بعضها فوق بعض.. فقد انقسم الفقهاء في مقياس الكفاءة في النكاح بين تلك الشعوب، فذهب الجمهور إلى اعتبار النسب في الكفاءة. وكان أبو حنيفة من أشدهم مغالاة في ذلك، وقد روي عنه أنه قال: «قريش أكفاء بعضهم بعضا. والعرب كذلك » وقال الثوري: «إذا نكح المولى المرأة العربية يفسخ النكاح».

وذهب بعض الفقهاء – كالإمام مالك – إلى اعتبار الدين في الكفاءة، فلا اعتبار عنده للنسب فيها. وهذا ما نطق به القرآن الكريم، حيث قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾[1].

ولا شك .. أن هذا الرأي كان فيه القضاء على تلك الرجعية الاجتماعية التي أصيب الإسلام بها قبل أن يتمكن من إزالة الفوارق بين شعوبه، ليجعل منها شعبا واحدا لا يعلو فيه جنس على جنس، ولا توجد في جنس منه نزعة إلى الاستئثار بشيء في الدولة دون غيره، وقد توسط الشافعي بين الرأيين، فقال: «ليس نكاح غير

(١) الحجرات : ١٣.

الأكفاء حراما فأرد به النكاح، وإنما هو تقصير بالمرأة والأولياء. فإذا رضوا صح، ويكون حقا لهم تركوه، فلو رضوا إلا واحدا فله فسخه» فلم يقض الشافعي على تلك الرجعية الاجتماعية التي قامت في الإسلام .

ومع ذلك فقد اجتهد الإمام الشافعي ، وأضاف إلى تفكيرنا الإسلامي الكثير والجديد، حتى توفي في شهر رجب عام ٢٠٤ هـ، ودفن في : مقابر ابن عبد الحكم بمصر. وجدد مقبرته السلطان صلاح الدين الأيوبي، فأقام له ضريحا كتب عليه، «عمل هذا الضريح المبارك للإمام الفقيه محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان ابن شافع بن عبيد الله بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف الشهير بالشافعي» .

* * *